المشرق
بيروت

السنة الحادية والاربعون — نيسان - حزيران ١٩٤٧

الجوالي

او جزية رؤوس النصارى في الاسلام

بقلم حبيب زيات

الجوالي جمع جالية اي الجماعة النازحة عن منازلها واوطانها وأُريد بها في الاصل ، فيما قيل ، اهل الذمة الذين جلوا عن جزيرة العرب ولكن فيما بعد تناول هذا الاسم في الاصطلاح كل النصارى واليهود والمجوس والصابئة ولو لم يكونوا أجلوا عن اوطانهم. وكانت الدواوين السلطانية تطلق اسم « جزيـة الجوالي » على الخراج الذي كان يستوفى عن رقاب الذميين ثم أُسقط في الاستعمال اسم المضاف ونُزّل المضاف اليـه في مكانه وعُرفت الجزية باسم « الجوالي » ، الا فيما خص نصارى بني تغلب فانهم ابوا ان يدفعوا الجزية « كجزية الاعلاج »[1] فسمي ما يؤخذ منهم « صدقات ». وورد اسم الجوالي بمعنى جزية اهل الذمة في كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف

١) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اروبة ، ١ : ١٨٣

يعقوب الذي وضعه للخليفة هرون الرشيد[١] . ومع ذلك فمند الخفاجي انه غير عربي[٢] .

وكان للجوالي ناظر من جهة السلطان يتولى تحصيل ما يستحق منها كل سنة ويتبعه في مصر « مباشرون من شادّ وعامل وشهود وتحت يده حاشر لليهود وحاشر للنصارى يعرف ارباب الاسماء الواردة في الديوان ومن ينضم اليهم ممن يبلغ في كل عام يُعبّر عنهم بالنش. ومن يقدم الى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها ويعبّر عنهم بالطارئ ومن يهتدي او يموت ممن اسمه وارد في الديوان ويملي على كتاب الديوان ما يتجدد من ذلك »[٣] .

وهذه نسخة توقيع بشد الجوالي بدمشق من انشاء ابن نباتة باسجاعها وفضولها وشقشقة الفاظها وقلة محصولها :

«رُسم بالامر الشريف – لا زالت سعود اوامره واضحة الادلة نافذة الحكم في كل ملّة قائمة لخصب البلاد بالعدل مقام السحب المستهلّة – ان يُرتّب فلان في شد الجوالي بدمشق المحروسة لما ظهر من نجابته واشتهر من حزمه ومهابته وبدا من همه العوالي وعزائمه التي تجلو صدأ الهم بالجوالي واذا قيل لحاسده : له ولايه إمرة الخيل قال : والجوى لي وانه الكافي الذي اذا استُنهض كانت عزائمه شابّة ونفحات ذكره الجميل هابّة ونجل الهمام الذي اشهد على كفاءته النهار وعلى تعبّده الليل واعدّ لمصالح الاسلام ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل وان مرباه لجميل ومنشأه في منازل الخيل دليل .

«فليباشر هذه الوظيفة المباركة بعزم يثمّر مالها ويقرّر على السداد احوالها ويستخلص الحق من اهل الاعتقاد الباطل ويستخرج الوفر من اهل الجلد الماطل فلا نصراني الا وهو يتضرع تحت الزرقاء من باسه ولا يهوديّ الا وهو يشكو الصفراء في راسه ولا سامري الا والنار الحمراء مُطلّة على انفاسه[٤] حتى تكون اوصاف شدّه متلوّة وعزائمه في الجوالي مجلوّة وهمّه جارية على إيلافها ومألوفها مجزئة لاقلام الحساب والدراهم على حروفها صحيحة الوزن غير منهوك آخذة الدينار من وازنه كالمأخوذ منه مصكوك شدّا تنعقد على اختياره الخناصر وكما ان للاسلام منه قوّة فليكن للوظائف الدينية منه ناصر»[٥]

---

١) طبعة مصر ، ص ٢

٢) شفاء الغليل ٧٧

٣) صبح الاعشى للقلقشندي ٣ : ٤٦٣

٤) ورّى بقوله الزرقاء والصفراء والحمراء الى الوان عمائم كل من اهل الذمة الثلاث كما كانت موجبة عليهم في دولة المماليك .

٥) صبح الاعشى ١٢ : ٢١٠–٢١١

وفي كتاب اعيان العصر للصفدي نسخة توقيع بنظر الجوالي كتبه عن السلطان الملك الصالح اسمعيل ، سنة ٧٤٥ / ١٣٤٤ ، جاء فيه : « لا يدخل الحول على ذمّي الا جاء اليه من يطلب الجاليه واحاط به الذل الذي يقول معه : ما اغنى عني ماليه وتجددت له حالة حالكة وحالة الاسلام جاليه على ان اهل الذمّة في الذلة ماهرون وتمام المصيبة انهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون »[١]

وكانت الجوالي تُستخرج بمصر مسانهةً في اول المحرم ثم صارت تستخرج في ايام من ذي الحجة[٢] او في رمضان . ويظهر ان استخراجها كان اولاً في هذا الشهر . قال المقريزي : سنة ٦٨٢ (١٢٨٣ م) استخرجت الجوالي من الذمة في اول المحرم وكانت العادة ان تستخرج في شهر رمضان فأُخر استخراجها الى المحرم رفقاً بهم[٣] . وكانوا يرون وجوبها مشاهرة حتى اذا اسلم الذمي او مات لزمه منها بمقدار ما مضى من السنة قبل اسلامه او وفاته[٤] . وهي تجب على الرجال البالغين دون النساء والصبيان والعبيد والمجانين[٥] . ولا تؤخذ من المسكين الذي يُتصدَّق عليه[٦] . ومن غاب عن البلد من اهل الذمة غيبة طويلة وكان له فيها دار أُخذ من اجرتها ما عليه[٥] .

وكان الرهبان في الديارات والقلالي والصوامع يُعدّون من جملة الفقراء والمساكين الذين يُتصدّق عليهم ويُعفون في الغالب من اداء الجزية . واول جزية أُخذت من الرهبان بمصر كانت في ايام الامير عبد العزيز بن مروان (٦٨٤—٧٠٥) امر باحصاء الرهبان وأُخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار[٧] . وفي إمارة احمد بن طولون طالب ابن مدبّر ، صاحب الخراج ، رهبان دير القُصَير الملكيّين بجزية رؤوسهم ، فشكوا امرهم الى احمد بن طولون ، وكان كثيراً ما

---

١) اعيان العصر ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٠٩١ تاريخ ، ج ٧ ص ٢٢٠

٢) صبح الاعشى ٣ : ٤٦٣

٣) السلوك للمقريزي ، باريس ، ١٧٢٦ ، ص ٢١٦

٤) الخطط ، مطبعة النيل ، ١ : ١٧٣

٥) قوانين الدواوين لابن مماتي ، خزانة بريتيش موزيوم Or. 3120, f° 12

٦) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف يعقوب ، طبعة مصر ، ١٤٦

٧) الخطط للمقريزي ، مطبعة النيل ، ٤ : ٢٩٤

يطرق الدير ويخلو في بعض القلالي يسكر ، وقالوا له ان الجزية أسقطت عن امثالهم على مرّ السنين ، فوقّع اليه بخطه توقيعاً فاخذ التوقيع منهم وبلغ لهم فوق ما يحبون[1]. ولما صار علي بن عيسى الى مصر ليكشف احوالها سنة٣١٣/ ٩٢٥ « اخذ الرهبان والاساقفة وطلب منهم الجزية من جميع الرهبان والضعفاء والمساكين ومن جميع الديارات التي باسفل ارض الصعيد ومن الاساقفة والرهبان الذين في دير مينا فخرج من الرهبان اناس الى العراق واستغاثوا بالمقتدر فكتب لهم ألّا يؤخذ منهم جزية وان تجري امورهم على ما كانت قديماً »[2] وقد اوصى غير مرة الخلفاء العباسيون ان لا تؤخذ «من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذي سنّ عالية ولا من ذي علة بادية ولا فقير معدم ولا راهب متبتّل.»[3] وفعل مثل ذلك بعض الملوك الايوبيين. وفي سنة ٥٨٩/ ١١٩٣ كتب الملك الافضل ابن صلاح الدين في تقليد بولاية دمشق :

« من الرعية الذين تحت يدك اهل الذمة وهم قوم سكنوا بين اظهر المسلمين سكنى الاذلال وبذلوا الجزية فعصموا بها مباح الدماء. والاموال فعليك ان تملي عليهم ظل المعدلة ... ومن احسان السيرة فيهم ألّا تطلب الجزية من راهب انقطع في صومعته ولا من شيخ حال الضعف بينه وبين الانتفاع به كما حال بينه وبين منفعته »[4].

واول ما فُرضت الجزية في الاسلام كانت « على الموسر ثمانية واربعين درهماً وعلى الوسط اربعة وعشرين وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثني عشر درهماً .»[5] واختلف بعد ذلك مقدارها في كل دولة . فكانت في زمان مؤلف « قوانين الدواوين » (١١٤٩–١٢٠٩م) على ثلاث طبقات — تُستأدى في مصر والاسكندرية واخميم — : عُليا وهي اربعة دنانير وسدس عن كل

---

١) سيرة احمد بن طولون لابي محمد عبدالله بن محمد المدني البلوي دار الكتب الظاهرية بدمشق ، رقم ٣٦٢ دون ارقام .
٢) تاريخ سعيد بن بطريق ٢ :٨٣؛ والخطط للمقريزي ٢ :٤٩٤ – ٤٩٥؛ طبعة بولاق.
٣) صبح الاعشى للقلقشندي ١٠ :٣٨
٤) الثاني من ترسل الصاحب ضياء الدين بن الاثير (الخزانة الشرقية ٣ :١٦٦)
٥) كتاب الخراج ١٤٦

رأس في كل سنة، ووسطى وهي ديناران وقيراطان، وسفلى وهي دينار واحد وثلث وربع دينار وحبّتان من دينار وأضيف الى جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشادّ والمباشرين. قال القلقشندي بعد ان نقل ما تقدم: « اما الآن ١٤١١/٨١٤ فقد نقصت حتى صار اعلاها خمسة وعشرين درهماً وادناها عشرة دراهم ولكنها تُستأدى معجَّلة في شهر رمضان. »(١) وقال محصولها حتى بلغ في هذه السنة الف وخمسائة دينار.(٢) ولذلك جُمع اليهود والنصارى في شهر رمضان سنة ١٤١٣/٨١٥ « وحضر الشيخ زين الدين ابو هريرة بن النقاش خطيب الجامع الطولوني وشمس الدين محمد بن التباني قاضي العسكر وصدر الدين احمد بن العجمي محتسب القاهرة وكتبت اسماؤهم لتؤخذ منهم الجزية بحسب قدرتهم وعلى قدر احوالهم فانهم لا يزنون الجزية الا مصالحة عن الجميع بمبلغ بضعة وثلاثين الف درهم في السنة. فقام الجماعة المذكورون مع السلطان في ان يؤخذ من كل واحد من الذمة بمفرده ان كان غنياً أُخذ منه اربعة دنانير وان كان متوسط الحال فيؤخذ منه ديناران وان كان فقيراً اخذ منه دينار. »(٣) وهو مذهب الشافعي فيما قيل « لا يجوز ان يُنقص احد من اهل هذه الطبقات الثلاث عن هذه المقادير ولا تقدير لاكثر الجزية فانه لو طالب الامام او نائبه اضعاف ذلك جاز حتى لو امتنعوا من اداء الزيادة كانوا ناقضين العهد »(٤).

ولذلك كان بعض الملوك والوزراء والنظّار يشتطّون ما شاؤوا في اقتضاء الجوالي حتى اخذها الملك الظاهر بيبرس مضاعفة احياناً(٥) وفي سنة ٦٥٠/١٢٥٢ اخذ الوزير الاسعد شرف الدين بن هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزي — وهو اسلمي من اصل نصراني — الجوالي مضاعفة من الذمة.(٦) وفي

١) صبح الاعشى ٣: ٤٦٣

٢) الثاني من انباء الغمر لابن حجر العسقلاني، باريس ١٦٠٢، ص ٣٣

٣) السلوك للمقريزي، بريتيش موزيوم Or. 2902 f. ° 11 b

٤) الحوادث الجامعة لابن الفوطي، الخزانة التيمورية رقم ١٣٨٣، ص ٣-٤

٥) السلوك للمقريزي، باريس ١٧٢٦، ص ١٩٤

٦) 〃 〃 〃 ص ١٣٠

سنة ٦٩٥/١٢٩٥ الزموا اهل الذمة باداء الجزية من اربعين سنة منذ قتل الخليفة الامام المستعصم[١] . وفي سنة ٧٤٢/١٣٤١ شرع الفخري النائب بدمشق في تحصيل الاموال لتجهيز طلب السلطان واستخرج من اليهود والنصارى جوالي ثلاث سنين معجّلة[٢] . وكان قبل ذلك قد أُضيف الى كل جالية دينار يؤخذ من كل ذمي بحجة نفقة الاجناد فيما عدا ما يغرمه للمباشرين والاعوان وهي المظلمة التي ازالها الملك المنصور سيف الدين قلاوون[٣] . ولكنها ما كادت تبطل حتى نشأ غيرها . وفي سنة ٧٦٠/١٣٥٩ في جمادى الاولى « رسم السلطان للنصارى واليهود باجرائهم على عادتهم في ايام الملك الناصر وذلك في امر جزيتهم ومواريثهم وابطال ما احدثه عليهم ضياء الدين يوسف ابن الخطيب »[٤] .

ومن هذه المحدثات ما دُعي « شبه الجالية » كان يؤخذ من اهل البرلّس وشورى والبلطيم وهو في كل سنة مبلغ ستين الف درهم ابطله الملك الظاهر برقوق في جملة المكوس التي اسقطها في ولايته[٥] . وفي سنة ٨١٦/١٤١٣ ولّى السلطان الملك المؤيد شيخ رجلاً جباية الاموال فكثر الاستقصاء عن الذمة والكدّ في الاستخراج منهم فبلغت الجوالي احد عشر الف دينار سوى ما غُرم للاعوان وهو قدر كثير[٦] . وكان ارتفاع الجوالي قبلاً عشرة اضعاف هذه القيمة . روى القاضي الفاضل انها بلغت سنة ٥٨٧/١١٩١ مائة وثلاثين الف دينار[٧] . فانحطت هذا الانحطاط الفاحش لشدة المظالم في دولة المماليك وضعف النصارى بكثرة من أكره منهم على الاسلام . وفي سيرة الملك الظاهر

١) تاريخ الجزري، باريس ٦٧٣٩، ص ١٧٤

٢) ذيل ابن قاضي شهبة، باريس ١٠٩٨، ص ٢٢

٣) الخطط ١ : ١٧١

٤) النهج السديد للمفضّل بن ابي الفضائل، اكسفرد M. S. Sale 58, f° 212 a

٥) تاريخ ابن الفرات، المطبعة الاميركانية بيروت ٩ : ج ١ : ٨٥ ; وفي النجوم الزاهرة انه أُعيد سنة ٨٦٧ في سلطنة الملك الظاهر جقمق، ٥ : ٤٢١، طبعة ليدن .

٦) الخطط ١ : ١٧٢

٧) « ١ : ١٧٢ كذا ورد في الصفحة المذكورة وفي الصفحة التالية ١٧٥ قيل ثلاثون الف فقط .

بيبرس للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ان الناس قد هلكوا من الظلم وكثرة المكوس والضرائب عموماً والجوالي المعجّلة قال: « ونفذت الاموال للرقّاصين والموانيّة واصحاب الارباع »[١]

وكان بعض الملوك والنواب وكثيرون من القضاة واهل العلم ورجال الدين يعتقدون حِلّ مال الجوالي وطيبه ونزاهته عن كل شبهة واثم، ولا يؤثرون غيره للانفاق على نفوسهم، ويحرصون كل الحرص على قبض جواريهم ووظائفهم من المتحصّل منه. ولما زار تاج الدولة تتش بن الب ارسلان نصرَ بن ابراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠/١٠٩٧ سأله عن احلّ الاموال السلطانية فقال: « اموال الجزية.»[٢] ومن كتاب للملك الافضل بن صلاح الدين بتقليد ولاية دمشق سنة ٥٨٩/١١٩٣ في كلامه على جزية اهل الذمة: « هذا المقدار من هذا الوجه قد بورك في ديناره ودرهمه وخير ما صرفه المرء المسلم في ملبسه ومطعمه فليغرق في الصدقة التي تزيده طيبا ولا تجعل له في الحسنات مثلًا ولا ضريبا»[٣].

واشهر من عاش كل ايامه من المرتّب له على مال الجوالي الملك العادل نور الدين بن زنكي. حكى ابو شامة انه كان له «برسم نفقة الخاص في كل شهر من جزية اهل الذمة مبلغ الفي قرطيس[٤] يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه حتى اجرة خياطه وجامكية طباخه ويستفضل منه ما كان يتصدق به في آخر الشهر»[٥]. ونظيره الملك الرحيم اتابك طغرل الظاهري مجلب كان لا يأكل الا مما يُبتاع له من مال الجوالي فقط[٦]. ولذلك احتفظ بعض الملوك بجباية هذه الجبهة واقاموا لها ديوانًا مفردًا مستقلًا. وبقيت في مصر كذلك الى سنة ٧١٥/١٣١٥، فأُخرجت من الخاص وفُرّقت في البلاد[٧]. وكان ما

١) خزانة بريتيش موزيوم Add, 23331, f° 18 a
٢) معجم البلدان لياقوت، طبعة اوربة، ٤: ٦٠١
٣) الثاني من ترسل الصاحب ضياء الدين بن الاثير (الخزانة الشرقية ٢: ١٦٦)
٤) القرطيس ست فلوس عددًا، وكان الناس يتعاملون بها بالشام عن كل درهم اربعة وعشرون قرطيساً فابطلها السلطان الناصر سنة ٧٢١/١٣٢١
٥) عيون الروضتين في اخبار الدولتين، بريتيش موزيوم Or. 1537, f° 39b
٦) ارشاد الاريب لياقوت ٥: ٤٩٢
٧) السلوك للمقريزي، خزانة الفاتيكان رقم ٧٥٩، ص٤٧

يتحصل منها « يُحمل منه قدر معيّن في كل سنة لبيت المال وباقي ذلك عليه مرتّبون من القضاة واهل العلم والديانة يوزّع عليهم على قدر المتحصل. »[١] حتى اذا تولى النشو القبطي الاسلمي خزانة الملك الناصر محمد بن قلاوون واحب التقرب من رضاه بتوفير الاموال « كان اول ما بدأ به... ان امر مباشري الجوالي بقطع ما عليها من المرتبات من جوامك القضاة والشهود ومشايخ العلم ونحوهم وكتب الى جميع الاعمال بحمل مال الجوالي لخزانة الخاص ومن تعجّل منها شيئاً يستعاد منه فجمع من ذلك مالًا كبيرًا »[٢] وبقيت الحال كذلك الى ان قُبض عليه سنة ٧٤٠ / ١٣٣٩ .

وجرى الاتراك العثمانيون على هذه الخطة في اطلاق ارزاق بعض القضاة والعلماء من اموال الجوالي ، منهم « محمد بن حمزة كمال الدين مفتي دمشق لما دخل ابراهيم باشا الوزير الاعظم الى دمشق في سنة ٩٣١ (١٥٢٤—١٥٢٥م) رتب له في مال الجوالي بدمشق ثلاثين عثمانياً . »[٣] ومحمد الكفرسوسي... رتب له عشرين عثمانيًا كل يوم[٤] . وفي حدود سنة ١٠٦٠(١٦٥٠م) سعى احد كتاب خزينة الشام اسكندر بن يوسف بن اسحق الرومي الاصل الدمشقي وتعاضد هو والدفتري وبعض الكتاب على قطع ارزاق العلماء والصلحاء بدمشق من جوالي السلطان « وعرضوا ما ابرموه على الوزير فجرت المقادير على وفق ما احكموه من الرأي الفاسد وقُطع من الناس شيء كثير وبسبب ذلك ضعفت قوة العلماء بالشام واستولى عليهم الفقر »[٥] .

ويؤخذ من رواية المقريزي انهم لما افردوا جوالي الذمة من ديوان الخاص سنة ٧١٥ / ١٣١٥ وفرّقوها في البلاد التي اقطعت للامراء والاجناد قلّ متحصلها كثيرًا، لان النصارى كانوا مجتمعين في ديوان واحد بمصر فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم الى مُقطَع تلك الضيعة فاتسع مجالهم وصاروا ينتقلون

١) صبح الاعشى ٤٦٣:٥

٢) السلوك للمقريزي، خزانة باريس رقم ١٧٢٦، ص ٤٧٥

٣) الكواكب السائرة للغزي، خزانة الجامعة الاميركية ببيروت،ص٢١ Ms 92002G41

٤) الكواكب السائرة للغزي ، ص٢٧

٥) خلاصة الاثر للمحبي ١ : ٤٠٣

في القرى ولا يدفعون من جزيتهم الا ما يريدون[١] . قال النويري : « اخبرني بعض العدول الثقات شهود دواوين الامراء انهم يستأدون الجالية من النصراني اربعة دراهم ونحوها وكانت قبل ذلك ستة وخمسين درهماً ولما كانت الجوالي جارية في خاص السلطان كانت الحشّار تسافر الى سائر البلاد ويستأدونها منسوبة الى جهاتها واذا وُجد نصراني في ثغر دمياط وهو من اهل اسوان او من اهل حلب او عكس ذلك أخذت منه الجزية في البلد الذي يوجد به ويكتب المباشرون بها وصولًا فيقيد له ببلده »[٢] . ولكن لم تلبث الجوالي ان عادت الى ما كانت عليه قبلًا وقد تقدم من شهادة المقريزي انها تقررت سنة ٨١٥/١٤١٣ بين دينار واربعة دنانير .

وفي شهر شوال سنة ٨١٧/١٤١٤ أُلزم اليهود بمبلغ الفي مثقال من الذهب وأُلزم النصارى بثمانية عشر الف مثقال تتمة عشرين الف مثقال وذلك في نظير تفاوت ما كانوا يقومون به فيما مضى من الجزية وتولى استخراج ذلك منهم زين الدين بن قاسم البشتكي المعروف بسيدي قاسم[٣] .

وكانت الجوالي في بغداد تجبى في شهر ربيع الاول قبل ان تكون في المحرم، ويلحق اهل الذمة في جبايتها مثل العسف والمغارم التي كانوا يتحملونها في مصر . قال الصولي : « سنة ٣٣٢ (٩٤٣ م) فتحت الجوالي في شهر ربيع الاول فلحق اهل الذمة خبط عظيم وظلم قبيح . »[٤] وفي سنة ٣٦٦/٩٧٧ عهد الخليفة الطائع لله الى فخر الدولة بن بويه « ان يتخيّر عمّاله على الاعشار والخراج والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من اهل الظلف والنزاهة . . . ويأمر جُباة جماجم اهل الذمة ان يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة بحسب منازلهم في الاحوال وذات ايديهم في الاموال وعلى الطبقات المطبّقة فيها والحدود المعهودة لها »[٥]

١) الخطط للمقريزي ١ : ١٤٥

٢) نهاية الارب للنويري خزانة ليدن Arab 2 O. Gaul 71b

٣) السلوك ، بريتش موزيوم Or. 2902, f° 20

٤) كتاب الاوراق ٢٥١

٥) صبح الاعشى ١٠ : ٢٨

وكانت العادة في بغداد ان يحمل ما يحصل من الجوالي الى الخلفاء. لا تعارضهم فيها الملوك[١] . ولكن في سنة ٤٣٤/١٠٤٢ افتتحت الجوالي في المحرم بامر الخليفة القائم بامر الله فانفذ جلال الدولة ملك العراق « من منع اصحاب الخليفة واخذ ما استخرج منها واقام من يتولّى جبايتها فشقّ ذلك على الخليفة وترددت منه مراسلات فلم تنفع . فاظهر العزم على مفارقة البلد وامر باصلاح الطيار والزبازب وروسل وجوه الاطراف والقضاة والاعيان بالتأهب للخروج في الصحبة ... وفي سنة ٤٣٥ (١٠٤٣ م) رُدّت الجوالي الى وكلاء الخدمة »[٢] .

ومن اهم الجوالي سنة (٦٢٦/١٢٢٨ — ١٢٢٩ م) عزل ناظر ديوانها محيي الدين يوسف بن الجوزي وترتب محيي الدين محمد بن فضلان في مكانه « وتُقدّم اليه باعتماد الشرع في اخذ الجزية فزاد على من عليه دون الدينار وفي غرة المحرم سنة ٦٢٧ — ١٢٣٠ م جلس في ديوان الجوالي واستوفى الجزية من اهل الذمة فكان احدهم يقف بين يديه الى ان توزن جزيته ويكتب له رُوز (وصول) وهو صاغر فلقوا من ذلك شدة. وكان ابو علي بن المسيحي رئيس الطب له اختصاص ودخول في دار الخليفة فاظهر المرض والاعتذار وسأل ان تؤخذ جزيته من يد ولده فلم يقبل منه فحضر وادّاها » وكتب محمد بن فضلان رقعة طويلة الى الخليفة الناصر لدين الله يحرّضه فيها على اهل الذمة وبعد ان بالغ في الوقيعة فيهم قال له : من حكم الشرع انه اذا اخذت الجزية منهم وهو قائم والآخذ قاعد يضعها في كفه ليتناولها المسلم من وسط كفه تكون يد المسلم العليا ويد الذمي هي السفلى ثم يمد بلحيته ويضرب في لهازمه ويقول له : « أدِّ حق الله يا عدو الله يا كافر » فلما وقف الخليفة على رقعته لم يُعد عنها جواباً[٣]

ولم يتفق لاحد من المؤرخين احصاء النصارى مرة في احدى المدن او

١) الكامل لابن الاثير ٩: ١٧٧
٢) مجلد من تاريخ الاسلام للذهبي ، بريتيش موزيوم Or. 49, f° 21b
٣) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ، الخزانة التيمورية ص ٣-٤ و٤٣-٤٧

الممالك الاسلامية لنعلم، ولو تخميناً، مقدار ما كانوا يؤدّونه وحدهم دون اليهود من جزية الجماجم، كما كانوا يقولون . وغاية ما وقفنا عليه من الاشارات الى ارتفاع جوالي اهل الذمة في اوقات متفرقة ما يأتي :

٣٠ ٠٠٠ دينار في مصر سنة ٥٨٧ (١١٩١ م) نقلاً عن القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين الايوبي[١]

١ ٥٠٠ دينار في مصر سنة ٨١٤ (١٤١١م) نقلاعن ابن حجر العسقلاني[٢]

١١ ٤٠٠ 〃 〃 〃 ٨١٦ (١٤١٣م) نقلاً عن المقريزي[١]

١٨ ٠٠٠ 〃 〃 〃 ٨٨٧ (١٤١٤م) 〃 〃 〃[٢]

١٠٠ ٠٠٠ درهم في قصبة حلب سنة ٦٠٩ (١٢١٢ م) نقلاً عن ابن الشحنة وابن شداد[٤]

١٥ ٠٠٠ درهم في حرّان وفي الرقة، في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة، نقلاً عن ابن شداد في الاعلاق الخطيرة[٥] .

٥ ٠٠٠ دينار في نصيبين . قال ابن حوقل : « رُفع لها من الجماجم عن جواليها ولوازمها مع الزيادات فيها خمسة آلاف دينار[٦] » .

ولا شك ان مقدار الجوالي كان يختلف كثيراً باختلاف قيمة النقود واشتداد المظالم على النصارى « وكثرة اظهارهم للاسلام في الحوادث التي مرت بهم »[٧] . ولما استولى الاتراك العثمانيون على مصر والشام وزاد عسف الولاة لمن تحت ايديهم من الذميين كانت شدة وطأة الجزية وعنف استخراجها وتعدد المغارم والخسائر التي تصحبها دائماً هي الباعث الاكبر لانتحال كثيرين

١) الخطط ١ : ١٧٥
٢) انباء الغمر ، باريس ١٦٠٢ ص ٣٢ ، كذا ورد فيها هذا العدد ولا ريب انه غير صحيح للفرق الفاحش بينه وبين متحصّل سنتي ٨١٦ و٨١٧ مع قرب الزمانين .
٣) السلوك ، بريتيش موزيوم Or. 2902 f° 20 a
٤) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٤٨
٥) *Revue des Etudes Islamiques*, 1934 (C. Cahen), pp. 111 et 112 وقد وهم بترجمة الجوالي : taxe des étrangers
٦) المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٤٣
٧) رحلة البطريرك مكاريوس ، باريس ٦٠١٦ ، الورقة ١٠ و٢١٠

منهم الاسلام. وقد شهد الشماس بولس الحلبي في رحلة والده البطريرك مكاريوس الزعيم ان اهل غزة خصوصاً كانوا يخرجون من دينهم افواجاً لعجزهم عن تأدية ما كان يطلب منهم، حتى لم يبق في زمانه اكثر من ثلاثين نفساً من الرجال البالغين في حين ان الجزية المقرَّرة عليهم كانت «مائة وخمسين اسماً» وهم يحمّلون جزية من اسلم منهم قال: «وفي هذه السنة (٧١٥٨ لآدم = ١٦٤٩م) بلغ خراج اهل الشام ثلاثة عشر غرشاً وكان في الشام جُباة خراج عتق كفرة اشرار لا يخافون الله»[1] وتتضح قيمة الغرش وقتئذ من حكاية الشماس بولس انه نصب في الدار البطريركية بدمشق عمودين من رخام على هيئة العُمُد الرومانية بمثل قواعدها كان يحار فيها عقل الناظر ولم يتكلف عليها سوى ثلاثين غرشاً فقط[2]. وبعد ان افاض في شرح مظالم الخراج وثقل تكاليفه وذكر وساطته ومساعي والده لتخفيفها قال انه تمكن من اسقاط جوالي اهل دمشق الى ٤٧٠ اسماً واهل بعلبك الى ٤٣ وكانوا اكثر من ١٥٠ ولكنهم فقراء جداً، وحطّ عن اهل قارة ومعرونية ١٥ اسماً، وعن اهل يبرود ٣٠، وعن اهل دير عطية ٣٥؛ وكان اهل كفربهم نحواً من ٢٠٠ في البلدة فكتبهم ٦٠ فقط. وكل هذه المدن والقرى من الروم الملكيين. وغرم على ذلك بضعة آلاف من الغروش بين هدايا ورُشى[3] ويستدل من كلامه ان المرسوم السلطاني يومئذ كان يوجب الخراج على القسوس والشمامسة ولكنه تلطف واجتهد باعفائهم منه.

وفي خزانة بريتيش موزيوم مخطوط رقم Add. 23483 مخروم من اوله تعطلت اكثر اوراقه بالرطوبة وطمست سطورها، وهو في معنى كتابة الدواوين وخراجها وحساباتها، وفيه فصول مهمة مفعمة من الفوائد والنوادر كالفصل في ذكر لُمع من احوال الطراز والصفحات في تفصيل مكس بعض البضائع المجلوبة. ومنها يمكن اقتباس عدة شروح واوصاف للجوالي تصلح لهذه المقالة ويُسدّ بها بعض ما فيها من الفراغ والنقص. وقد اعجلنا الوقت عن حل عويص هذا الكتاب، ولم نتمكن، واأسفاه، من نقل شيء عنه.

١) رحلة البطريرك مكاريوس، باريس ٦٠١٦ الورقة ١٠ و ٢١٠

٢) « « « « « ٢٠٥

٣) « « « « « ١٠ و ٢٠٩–٢١٠

خصائص بعلبك قديماً

في الصناعة والزراعة

مَن قابل بين ما كانت عليه مدينة الشمس في الازمنة السالفة وما آلت اليه حالتها اليوم في الصناعة والزراعة يتولاه العجب والاسف لانحطاط شأنها وتقلص ظلها وعدم انتفاع اهلها بما خُصّت به من طيب الهواء وعذوبة الماء وخصب التربة ورخص الاجور فيها وفي برّها. وهذه المزايا هي التي احلّتها قديماً محلها بين المدن الصناعية والزراعية في الشام. ومما اشتهرت به شهرة فائقة واتسعت به تجارتها نسيج عرف باسم «البعلبكي» كان يحمل الى آفاق الشرق وتغصّ به الاسواق لاقبال العامة والخاصة عليه، ولاسيما في البلاد المصرية. وكان ينشأ احياناً من قلة المجلوب منه او من احتكاره وارتفاع اسعاره شغب في الاسواق وتظلم من الجنود والعمال وذوي الحاجة والفقراء لاعتيادهم اياه وعدّه من الالبسة المباحة شرعاً. قال البدر العيني في حوادث سنة ٨٠٥ (١٤٠٢ م):

« في هذا الشهر (رجب) ارتفعت الاسعار جداً في انواع القماش فوصل الثوب البعلبكي الذي طوله ثلاثون ذراعاً الى اربعمئة درهم.»[١]

وروى ابن تغري بردي في اخبار جمادى الاولى سنة ٨٦٢ (١٤٥٨م):

« في يوم الاحد السابع عشر خاشنت المماليك الصاحب جمال الدين ناظر الجيش الخاص في اللفظ بسبب غلوّ سعر الثوب البعلبكي »[٢]

واكثر ما كان يعمل من القطن وقليلاً من الصوف، يبلغ طول الثوب منه ثلاثين ذراعاً في عرض ذراع ونصف، ومنه صنف رفيع يعمل للملوك يكون ابيض في الصيف. قال ابن تغري بردي ايضاً في حوادث سنة ٨٦٢ (١٤٥٨م):

« في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة لبس السلطان القماش الابيض

---

١) عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، باريس ١٥٤٤، ص ٦١

٢) النجوم الزاهرة، طبعة ليدن ٧: ٥٠٠

البعلبكي المعدّ لايام الصيف على العادة في كل سنة »[١] وكان الملك الظاهر خشقدم لا يعجبه من البعلبكي الا ما تزيد قيمته على ثلاثين دينارًا[٢].

ومن اقبح ما دفع اليه الطمع في الاستئثار بارباح هذا الصنف واشباهه من الملبوس ان الملك الظاهر برسباي الذي حجر على اكثر انواع المتجر في ايامه رسم في شهر رجب سنة ٨٣٢ (١٤٢٩م) « ان يكون صنف البعلبكي والعاتكي والموصلي للسلطان لا يشتريه ممن يجلبه الى القاهرة ويبيعه في الناس الا هو »[٣]

ومن هذه الاثواب الملوكية كانت تكون احيانًا هدايا نواب دمشق للسلاطين ففي سنة ٧٩٩ (١٣٩٧ م) « وصل نائب الشام الى مصر ... وارسل تقدمة الى السلطان عشرة مماليك ... وخمسة وعشرون جملًا محملة نصافي وبعلبكي ونحو ثلاثين جملًا محملة فاكهة وحلاوة ومخللات وغير ذلك »[٤].

وفي تاريخ ابن اياس ان الحاكم بامر الله لما قتل وزيره الامير برجوان « احتاط على موجوده فوجد له الف سروال من البعلبكي العال وفي كل سروال نافجة مسك وتكة حرير ابيض »[٥]. ولكن في خطط المقريزي ان الالف سروال كانت دبيقية[٦] اي من نسيج كان يعمل في دبيق، بليدة من اعمال مصر، كانت بين الفرما وتنيس تنسب اليها الاثواب الدبيقية.

ولم يكن البعلبكي لباسًا وجمالًا للاحياء فقط بل كان ايضًا ثوبًا وصوانًا للموتى ومن تذكر كثرة الطواعين في مصر وهلاك الالوف بها يتحقق المقدار الهائل من الاكفان التي كانت تتخذ منه غالبًا لمواراة الموتى وما يعقب اشتداد الطلب عليها من ارتفاع الاسعار ورواج التجارة والجلب، وفي ذلك ما لا يخفى من المنافع والارباح لبعلبك

ومما عرفت به ايضًا نوع من الاردية يسمّى الإحرام، وهو ثوب واسع لا اكمام

---

١) النجوم الزاهرة ٧: ٥٠١

٢) 〃 〃 ٧: ٧٦٠

٣) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، باريس ١٧٢٧، ص ٢٦١

٤) ذيل ابن قاضي شهبة، باريس ١٥٩٩، ص ١٣

٥) تاريخ مصر لابن اياس ١: ٥١

٦) الخطط ٣: ٥

له ولا بطانة يتردى به الرجل. واكثر ما يلبسه اهل المغرب والاندلس. قال ابن بطوطة لما مرّ ببلدة قسنطينة في المغرب: «تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء. فنظر الى ثيابي وقد لوثها المطر فامر بغسلها في داره وكان الاحرام منها خلقاً فبعث مكانه احراماً بعلبكياً وصرّ في احد طرفيه دينارين من ذهب»[1]

ويظهر ان بعلبك عرفت ايضاً صناعة الزنانير والبنود القطنية واكثر ما كان يتخذها المماليك بمصر. روى المقريزي انه «كان من الرسم في الدولة التركية ان السلطان والامراء وسائر العساكر... تكون اوساطهم مشدودة ببنود من قطن بعلبكي مصبوغ عوضاً عن الحوائص»[2]

ولا يخفى ما تقتضيه كل هذه المصنوعات والارتفاعات من تعدد العمال ودربتهم على الحياكة وفنونها، وألفتهم اساليب التجارة والارتفاق، ولا شك ان بعلبك لم تنفرد بها بل شاركتها في الاهتمام بها واستبطاعها بلاد اخرى في الشام. وانما نسبت الى بعلبك خاصة لانها كانت السابقة الى طريقتها والتوفر عليها فاشتهرت بها وحدها. ولم نجد لاحد نصاً صريحاً على زراعة القطن في بعلبك وبرّها وقراها ويبعد جداً ان لا تكون تخصصت بها مع افتقارها الى القطن وشدة الطلب عليه وتنفذ لاروبة وعلى منسوجاتها منه لمصر. وقد شهد البشاري المقدسي، في القرن الرابع للهجرة، ان بعلبك مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب[3]. ولكنه لم يفصّل شيئاً من هذه المزروعات، وكان القطن وتنذ عاماً في حماة وحلب وطرابلس وبيروت، ومنه في برّ دمشق نوع قصير الساق، وكانت الحولة معدن الاقطان[4].

وعرفت بعلبك ايضاً، فيما عدا النسيج، «الدهان الفائق في الماعون مما يستحسن ويحمل منه الى كثير من البلاد.»[5] ويُراد بالماعون كل ما يُنتفع به من الآنية في البيت كالقدر والمركن والفأس والقدوم ونحوها. ومن آنية البيت والمائدة

١) رحلته ١: ٦٠ و٤٨

٢) الخطط ٣: ١٦٠، وتاريخ ابن اياس ١: ٣٠١

٣) احسن التقاسيم ١٦٠

٤) احسن التقاسيم ١٦٠

٥) ترجمة النواظر لابي الفضل بن شحنة، مسودة بخطه بالمكتبة الاحمدية بحلب.

الصحاف والملاعق الخشبية . وكان لاهل بعلبك صنعة خاصة بها شاهدها ابن بطوطة ووصفها بقوله : « ويُصنع بها اواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمّون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة اخرى تسع في جوفها واخرى في جوفها الى ان يبلغوا العشرة يُخيَّل لرائيها انها صحفة واحدة. وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاماً مع اصحابه اخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعاً »[١] .

وكانت الاواني الخشبية المدهونة في بعلبك لا يكاد يخلو منها جهاز العرائس في الشام ومصر وغيرها. ويستدلّ على ذلك بما رواه المقريزي في اخبار زواج انوك ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٢ / ١٣٣٢ قال : « خرج شوارها من القصر وكان عدد الحمالين ثمانمائة حمال . . . النحاس الشامي اثنين وعشرين حمالًا والبعلبكي المدهون اثني عشر حمالًا »[٢] .

واما المزروعات فاكثرها قديماً الاعناب روى البشاري المقدسي ان بعلبك كانت معدنها ولذلك اشتهرت بصناعة الدبس والملبن، وعدّ ياقوت القرنزل من قرى بقاع بعلبك وقال: يعمل بها الملبن المسمّى بجلد الفرس وهو من خصائصها[٣] . ولما مرّ ابن بطوطة ببعلبك كان الملبن لا يزال معروفاً بها وصفه بقوله : « بها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرُّبّ يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلّة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمّون حلواءه بالملبن ويسمونها ايضاً بجلد الفرس . »[٤]

وببعلبك اليوم بقية بقيت من الفواكه الكثيرة التي كانت فيها قبلًا ومنها اصناف اشتهرت خصوصاً بالنسبة اليها عدّ منها الصفدي في « تذكرته » والبدري

---

١) رحلته طبعة باريس، ١ : ١٨٧
٢) الخطط ٣ : ١١٠
٣) معجم البلدان ٣ : ٨٧٣
٤) رحلته ، مطبعة وادي النيل ، ١ : ٤٨

في «محاسن الشام»: المشمش البعلبكي والتين البعلبكي والكمثرى البعلبكي والقراصيا البعلبكية . وقد انقطعت القراصيا منها بعد ان كانت متوفرة فيها جدًا حتى قال ابن بطوطة ان «بعلبك بها من حبّ الملوك ما ليس في سواها»[1] واهل المغرب والاندلس يدعون القراصيا حب الملوك[2]. وروى فيه المقريّ قول بعضهم:

ودوح تدلّى اشطانه رعى الدهر من حسنه ما اشتهى
فما احمرَّ منه فصوص العقيق وما اسودَّ منه عيون المها[3]

ومن انواع التفاح التي زالت كذلك من بعلبك «التفاح اللبناني» ومن شهوده المحفوظة حجر أُدمج منكساً في حائط الجامع الكبير الغربي ببعلبك من خارجه فيه كتابة سلطانية من عهد الملك الظاهر برقوق (١٣٩٤) جاء فيها: ان «بعلبك تتفق فيها في كل سنة مظلمة ... وهو ان جماعة من البلّاصين يطوفون في كل سنة على البساتين يطلبون من اهلها التفاح اللبناني...»

وفيما عدا الدبس قال ياقوت: ببعلبك جبن وزيت ولبن ليس في الدنيا مثلها يضرب بها المثل . ونقل ابياتاً لاعرابي قال فيها في تشبيه البياض:

«او جبنة من جبن بعلبك»[4].

ونقل ابن بطوطة ان بعلبك «كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق»[1].

ولا ريب انه كان هناك زراعات وصناعات أُخر لم يتفق لاحد الاشارة اليها او لم نوفّق للعثور عليها. وفي ما اوردناه منها تذكرة لقوم يعقلون.

---

١) رحلته١ : ٤٨

٢) مفردات ابن البيطار ٤ : ٨

٣) نفح الطيب ٣ : ٣٤١

٤) معجم البلدان ١ : ٦٧٤

السرقين والسماد في الزراعة قديماً

لم يكن علم الفلاحة ومماناة الارض من العلوم التي انصرفت اليها في الشرق انظار العلماء والمؤلفين ، فلم يقم في الاقطار الزراعية كالشام ومصر والعراق والاندلس من انقطع الى الدرس والبحث في علم الفلاحة وعُني باذاعة تجاربه واسراره الّا فيما ندر وقلّ. ومن راجع كتابي الفهرست وكشف الظنون وهما كل ما وصل الينا من اسماء الكتب والفنون لا يكاد يجد فيهما الا بضعة مؤلفات تدل على قلة عناية القوم بتدوين تجارب الزراعة. ومن اشهر المصنفات فيها:

– كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية. وفي دار الكتب المصرية الجزء الاول منه رقم ٣٩ في ٣٥ ورقة ، كتب في ٢٢ رجب سنة ٩٩٥

– كتاب الفلاحة اليونانية لقسطا او قسطوس بن لوقا الرومي ، طبع في المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٣ للهجرة

– كتاب الفلاحة للروم لعلي بن محمد بن سعد ، ذكره ابن النديم.

– كتاب الفلاحة لابن العوّام الاشبيلي. طبع في مجريط (مدريد) سنة ١٨٠٢ وفي مصر.

– كتاب الدر الملتقط من علم فلاحتي الروم والنبط تأليف محمد بن ابي بكر ابن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ حطّين رقم ٢١ في مكتبة الدار المصرية ، فيه لغاية الباب التاسع والعشرين ٦٤ ورقة.

– كتاب بغيـة الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين تصنيف السلطان الملك الافضل العباس ابن الملك المجاهد علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف ابن الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. ناقص من آخره قليلًا. ذكر انه نقله واستخرجه من مطالعة الكتب المدونة في الفلاحات وسمّى منها الكتاب الموسوم بالاشارة في العمارة تصنيف والده، وكتاب ملح الملاحة في معرفة الفلاحة لجده الملك الاشرف. وفي دار الكتب المصرية نسخة من بغية الفلاحين رقم ١٥٥، في ١٦٤ ورقة فيه الى الباب السادس عشر. وفي خاتمته فوائد زراعية ثمينة. ويظهر ان المؤلف توفي سنة ٧٧٨ للهجرة.

– كتاب الفلاحة المنتجة لطَيِّبُغا الجركلمشي من نسخة حسنة في دار الكتب المصرية رقم ٢١٩ في ١١٨ ورقة، وفي خزانة باريس نسختان منه رقم ٢٨٠٧ و ٢٨٠٨ .

– كتاب الفلاحة لابي عبد الله محمد بن الحسين رقم ٤٧٤٦ في خزانة باريس.

– كتاب مفتاح الراحة في علم الفلاحة رقم ٢٣٧ في مكتبة الدار المصرية ، واوراقه ١٨٩ ، واكثره منقول عن كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية.

– كتاب جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة لرضي الدين الغزي رقم ١٣٤ في دار الكتب المصرية ، ١١٧ ورقة وفيه فوائد كثيرة.

– الفن الرابع في النبات والزراعة والفلاحة في تسعة ابواب من كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر لجمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراق المعروف بالوطواط . ومنه ثلاث نسخ في دار الكتب المصرية احداها مصورة في ثلاثة مجلدات رقم ٣٥٩. وهو ينقل عن ابن بصال في كتاب الفلاحة الرومية، وعن كتاب النبات لابي الخير الاندلسي؛ قال وهو غريب جداً لم اجد من رآه . وينقل احياناً عن كتاب ابن وحشية وكتاب الفلاحة المصرية.

– عَلَم الملاحة في عِلم الفلاحة للشيخ عبدالغني النابلسي ، طبع في مطبعة نهج الصواب بدمشق سنة ١٢٩٩، اختصره من كتاب الغزي المتوفى سنة ٩٣٥ السابق الذكر.

– عمدة الصناعة في علم الزراعة لعبد القادر الخلاصي من القرن الثاني عشر.

وقد طالعنا كل ما وجدناه من هذه المؤلفات في دار الكتب المصرية فوجدنا كتاب ابن العوام اجودها واتمها واجدرها بالمراجعة والاعتبار . وقد استوفى فيه كل ما كان مألوفاً في زمانه من علاج الارضين وزراعة البقول والحبوب وغراس الاشجار وتربية الحيوانات والدواجن ، وروى كل ما يتعلق بهذه الابواب علماً وعملاً فهو خير ما يعتمد عليه في هذا الدرس وفيه فوائد وفرائد توضع عليها اليد وتعد ذخراً للزارع والاكّار .

ومعلوم ان الاسمدة التي هدت اليها الكيمياء ونبهت على خصائصها وفضائلها في انعاش الاتربة وتعويض ما تفقده من المواد والقوى في تغذية

النباتات وتشجير الاشجار لم تكن معروفة في اوروبة قبل القرنين الاخيرين فكان الأكرة ورجال الفلاحة لا يعرفون الا السرقين لاصلاح الارضين وازكاء الزروع ولذلك قال الحاركي :

لا اغرس الزهر الا في مُسَرْقَنةٍ والغرس اجود ما يأتي بسرقين (١

وقد فرّقت كتب اللغة بين السرقين والسماد فالسرقين هو الزبل والروث وحده. واما السماد فهو السرقين برمل وتراب. وجاء الدمال بمعناه وبمعنى السرقين يقال دمل الارض اذا اصلحها او سرقنها ومن مزاعمهم في التقاليد المروية عن محمد بن علي بن عبدالله ان « اول من دمل الارض اي القى فيها السماد داود عم »[٢]. وحكى الاصبهاني ان اول من جمع السماد بالبصرة وباعه هو عيسى بن سليمان بن علي العباسي من بيت الخلافة حينما كان امير البصرة « وكانت له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه فقال فيه ابو الشمقمق :

اذا رُزق العباد فان عيسى له رزق من « أعجاز » العباد

فلما تزوج عيسى فاطمة بنت عمرو بن حفص قال محمد بن عُيينة في ذلك :

افاطمَ قد زُوِّجتِ عيسى فأبشري لديه بذلِّ عاجل غير آجل
فانك قد زُوِّجتِ من غير خبرة فتى من بني العباس ليس بعاقل
فان قلتِ من رهط النبي فانه وان كان حرّ الاصل عبد الشمائل . . .
رأيت ابا العباس يسمو بنفسه الى بيع بيّاحاته والمباقل[٣]

ولم ترد لفظة البيّاح في المعجمات ولا في تكملة دوزي . وانما جاء البياحة شبكة الحوت، وبعد طويل البحث والتنقير وُفقنا للعثور على الحديث الآتي في كتاب البخلاء للجاحظ قال :

« حدثني ابرهيم عبد العزيز قال : تغديت مع راشد الاعور فاتونا بجام فيه بياح سبخي الذي يقال له الدرّاج فجعلت آخذ الواحدة فاقطع رأسها ثم اعزله ثم اشقها باثنين من قبل بطنها فآخذ شوكة الصلب والاضلاع فاعزلها وارمي باقي بطنها وبطرف الذنب والجناح ثم اجمعها في لقمة واحدة وآكلها »[٣]

١) معجم البلدان ٣ : ٣٨٨
٢) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٩٨
٣) كتاب البخلاء ١٦٤

ولا شك ان هذا الوصف هو وصف سمك كان بالبصرة تجمع رُذالته ونُفاياته وما يُرمى به من شوكه واضلاعه واطرافه وتحفظ في محابس لها حتى يغلب عليها العفن، فتُباع على البساتين كالسماد. ومن ثم تكون البياحات في حكاية الاصبهاني، المواقع التي يحبس فيها البياح والسماد. وهذا اقرب ما يبدو لنا في تفسير هذه الكلمة الغريبة.

وقد فاتنا لا محالة كثير من اختبارات الأكَرة وارباب الضياع والبساتين وفنون علاجهم للارض وتنميتهم للبقول والازهار والاثمار. وتكفي مطالعة كتاب ابن العوام الآنف الذكر لمعرفة ما كان لبعض مصطلحاتهم وطرائقهم من الشأن والقيمة. ومن بعض الادلة عليها تنبيهم الى ما في الدماء والابوال من القوة والدواء لاصلاح الارض لما فيها كما هو معلوم اليوم من الازوت والنترات فاشاروا بها لطب النباتات والمغروسات. قال ابن العوام: « وقد يُعالَج بعض ادواء النبات بدماء وابوال لان للدماء قوى عجيبة في انعاش بعض الشجر والنبات ». [1] ولكن فاته ان ينبّه على وجوب تجفيف الدم قبل استعماله.

وقد راجعنا مقالاتهم في انواع السرقين والمفاضلة بين ذرق الحمام وارواث الخيل والبغال والحمير واخثاء البقر والجواميس وابعار الغنم والضان والمعز، فاذا افضل الازبال عندهم ذرق الحمام واختلفوا في ما يتلوه في الجودة فقدم بعضهم زبل الحمير على روث الخيل ثم زبل الغنم ثم زبل البقر. ونقلوا عن «قسطوس احد علماء الفلاحة»، وهو قسطا بن لوقا، انه قال: « احسن زبل الطير ذرق الحمام فبحرارته يميت الاعشاب ثم زبل الحمير ثم زبل الغنم ثم زبل البقر وانفع الازبال العامة للنبات زبل الخيل والعواذين.» [2] وهذا الرأي هو الشائع اليوم في تفضيل روث الخيل للمزروعات عامة.

وهنالك سرقين آخر اشادوا بجودته واجمعوا على ايثاره والمغالاة فيه وهو ما نستسمح القارئ اجمل العذر في التعريض به، وقد سبق الايماء اليه في بيت الشمقمق ويسمونه الروث الآدمي وزبل الناس. ومن غريب ما عُرف به ايضاً

١) كتاب الفلاحة لابن العوام، طبعة مدريد، ١٠٦

٢) « « « « « « ١٠٠

ولم نرَهُ الا مرةً واحدة اسم « قوسان » ، نقله ابن الاخوة في كلامه على حسبة الفاخرانيين والقصارين فقال: « يُشرط عليهم الّا يَقِدوا على الكوز بقوسان وهو روث الآدمي ولا بشيء من الازبال فانه نجس بـل بالحلفاء والفيشة وهي قشر الارز وما اشبه »[1].

ومن اشهر اسمائه ايضاً الغائط والنجو والعَذِرة. وانما الغائط المكان المطمئن وكانوا اذا ارادوا الخلاء ينحدرون الى الغيطان اي بطون الارض تستّراً وانتباذاً. وكثر ورود الغائط في كلامهم فانتقل اسمه الى الحَدَث نفسه واشتقوا منه الفعل تغوَّط ، كما انتقل اسم الحش وهو في الاصل البستان الى بيت الخلاء لانهم اعتادوا ان يتبرزوا في البساتين.[2] واما النجو فهو الارتفاع من الارض وكان الرجل اذا خرج لقضاء الحاجة يتستر بنجوة فقالوا من ذلك ذهب ينجو كما قالوا ذهب يتغوط اذا ذهب الى الغائط لذلك الامر[3]. واما العَذِرة فهي فناء الدار وكانوا اذا قضوا حاجتهم القوها في الافنيـة فأُطلق اسم المحل على الحالّ.

وفي اخبارهم عن هذا السماد الآدمي من النكات والمضحكات وهُجَن العادات والحكايات الغريبة ما يدخل في اوصاف الحضارة وتاريخ الفلاحة ولذلك لم نتوقف عن رواية بعضها بعد اطّراح ما لا يجمل ذكره واستبدال ما يقبح التصريح به من الفاظه المبتذلة الفاحشة:

وقد عدّه ابن العوام بعد ذرق الحمام في الجودة والامتحان للارض والمنابت كلها[4]. ووصف ايضاً كيف يُعمل به قبل الاستعمال له فقال: « ينبغي ان يجفف من رطوبته الاولى حتى يكمل جفافه ويسود ثم يجعل في الحفائر ويرش عليه الماء العذب ثانية ويحرَّك تحريكاً كثيراً ويخلط حتى يختلط ويجفَّف حتى يجف جفافاً جيداً ثم يُخلط به رماد »[5].

١) معالم القربة في احكام الحسبة، طبعة كمبريدج، ٢٣٢
٢) النهاية في التعريض والكناية للثعالبي ٢٤-٢٥
٣) كتاب الحيوان للجاحظ ، طبعة مصر ١٣٢٣ ، ج ١ : ١٦٢-١٦٣
٤) كتاب الفلاحة لابن العوام ١٠٥
٥) » » » ١٠٥

وكان لاصحاب البساتين طلب عليه شديد وتنازع متواصل « فلا يعافون تسميد بقولهم قبل نجومها وتفتق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها حتى ربما ذرّوا عليها السماد ذرّاً ثم يرسل عليها الماء حتى يشرب موضع اللب قوى العَذِرة . بل من لهم بالعذرة وعلى انهم مـا يصيبونها الا مغشوشة مفسدة وكذلك صنيعهم في الريحان فاما النخـل فلو استطاعوا ان يطلوا بها الاجذاع طلياً لفعلوا .»[١]

ومما يدل على الاعتقاد الشائع في اثر هذا السماد البشري نكتة رواهـا البلاذري عن معاوية بن مروان وكان محتقاً قال: « مرّ بحقل وقد سمع اهل الشام يقولون لا يفلح حقل لا يرى « عجز » صاحبـه فنزل واحدث.»[٢] ومن اهزل الابيات التي قيلت في هذا المعنى ما رواه ابو الفرج الاصبهاني قال :

« اجتمع جيفران الموسوس ومحمد بن بشير في بستان فنظر الى محمد بن بشير وقد انفرد ناحية ثم قام عن شيء عظيم خرج منه فقال جيفران.

قد قلت لابن بشير لما رمى من عجانه
في الارض تلّ سماد علا على كثبانه
طوبى لصاحب ارض « خلوته » في بستانه[٣]

وكانت البصرة فيما قيل اشهر اسواق السرقين واميرها كما سبق كان من يتجر به « وللحشوش فيها اثمان وافرة ولها فيما زعموا تجار يجمعونهـا . فاذا كثرت جمع عليها اصحاب البساتين ووقفهم تحت الريح لتحمل نتنهـا اليهم فانه كلما كانت انتن كان ثمنها اكثر ثم ينادي عليها فيتزايد النـاس فيها وقد قصّ هذه القصة صريع الدلاء المصري . . . ولذلـك ذمّ الشعراء البصرة واهلها فقال محمد بن خازم الباهلي (في هجاء البصري) .

يتّقي « نَجْوَهُ » كما يتغالي به عند المبايعة التجار[٤]

ومن النوادر المرويّة عن البصرة « دخل فتى من اهل المدينـة البصرة

١) كتاب الحيوان ١ :١١٦
٢) انساب الاشراف ٥: ١٦٤-١٦٥
٣) الاغاني ١٣ : ١٤٠-١٤١
٤) معجم البلدان ١ :٦٤٧

فلما انصرف قال له اصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال : خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس . اما الجائع فيأكل خبز الارز والصحناة فلا ينفق في شهر الا درهمين . واما الغريب فيتزوج بشق درهم . وأما المحتاج فلا عليه غائلة ما بقيت له « عجزه يُحدث ويبيع »[١] .

واشبهت اصبهان البصرة في نفاق الحشوش فيها « فان قيمتها عندهم وافرة » قال ياقوت : حدثني بعض التجار قال : رأيت باصبهان رجلا من الثَّناء يطعم قوماً ويشرط عليهم ان يتبرّزوا في خربة له قال : ولقد اجتزت بـه مرة وهو يخاصم رجلا وهو يقول : كيف تستجيز ان تأكل طعامي وتفعل كذا عند غيري – ولا يكني – ولبعض الشعراء في ذم اصبهان واهلها ابيات قال فيها ان ليس للناظر في ارجاء اصبهان من نزهة تحيي القلوب غير اوقار العذرة[٢] . ومن اقبح ما وُصف به ايضاً اهل اصبهان قول ابي القاسم البغدادي :

« يحملون « نجوهم » على رؤوسهم وعلى ظهور دوابهم الى بساتينهم فينتجسون به الانهار ويربّون به الثمار ويأكلونها . اي لعمري هو « نجوهم » منهم بدا واليهم يعود وهم احق به . بلدة حشوشها في المسابل وطرقها كالمزابل لا يوجد بها ذو كرم ولا نائل »[٣] .

وعيبت مدينة توزر في افريقية « بان اهلها يبيعون ما يتحصَّل في مراحيضهم من رجيع الناس يفخلون به بقولهم وبساتينهم ولكنهم لا يرغبون فيه الا اذا كان جافاً فيحملهم ذلك على عدم الاستنجاء في مراحيضهم ويخرج احدهم من بيته حتى يأتي القناة فيستنجي من مائها وربما اتخذ احدهم المراحيض على قارعة الطريق للواردين عليها ليأخذ ما يتحصل من ذلك ويبيعه . »[٤] ولذلك قال الجاحظ : « من اكرم سمادهم الابعار كلها والاخثاء . اذا جفَّت وما بين الثلط جافاً والخثاء . وبين العذرة جافة ويابسة فرق »[٥] .

---

١) معجم البلدان ١ : ٦٤٧

٢) 〃 〃 ١ : ٢٩٤–٢٩٥

٣) حكاية ابي القاسم البغدادي ٢٢

٤) صبح الاعشى ٥ : ١٠٦

٥) كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ١١٦

واقبح ما هنالك ما كان يجري في قابس « فان اكثر دورهم لا مذاهب فيها وانما يتبرزون في الافنية فلا يكاد احدهم يفرغ من قضاء حاجته الا وقد وقف عليه من يبتدر اخذ ما خرج منه لطعمة البساتين وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاحون فيه فيخص به من اراد منهم وكذلك نساؤهم لا يرين في ذلك حرجاً عليهن اذا سترت احداهن وجهها ولم يعلم من هي»[١].

واشد ما كان الطلب على السماد في بغداد حتى بعث الطمع بعض اصحاب الرباع على احتكار ما كان يلقى على الكساحة والمزابل قال بعضهم : نزلنا داراً بالكراء للكندي فكان في شرطه على السكان ان يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوفة»[٢].

ولابن السُتَينير في بلنسية (Valence) وهي من اهم مغارس النارنج والبرتقال في اسبانية تطيف بها منها حدائق وبساتين ملء البصر :

بلنسية بلدة جنّة وفيها عيوب متى تُختَبَر
فخارجها زهر كله وداخلها برك من قذر[٣]

ومن الغريب جداً ان يتنازع الناس الى هذا الحدّ القبيح اوقار الاقذار فهل كان سرقين الحيوانات دون الكفاية ؟ ولعل اقرب ما يعلّل به هذا الطلب الشديد ان الابعار والاخثاء كانت تجفّف وتُدّخر للوقود ولاسيما في البلاد التي قلّت فيها الاحراج والغياض وتعدّدت الحمامات كما اشار اليه صاحب كتاب البخلاء. حيث قال : « اما الفرث والبعر فحطب اذا جُفف عجيب .»[٤]

ولا شك ان مثل هذه العادة كانت في الشرق معروفة شائعة منذ القدم ولا تزال متّبعة في القرى والجبال الى اليوم وقد المح اليها الشعراء، قال الهذلي :

وليلة يصطلي بالفرث جازرها يختصّ بالنَقَرى المُثرين داعيها[٥]

وللاخطل في احدى نقائضه :

١) معجم البلدان ٤:٤

٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ٣:٢٥٩

٣) معجم البلدان ١:٧٣٢

٤) كتاب البخلاء ٧٨

٥) كتاب الحيوان ٦:١٦٦

صُفر اللحى من وقود الأدخنات اذا رَدّ الرفادَ وكفَّ الحالبِ القِرَرُ

يقول هم صفر اللحى من الدخان والادخنات السرقين والرفاد قدح ضخم والقِرَر جمع قرة وهي البرد[١] .

وفيا عدا الوقود للاصطلاء. كان السرقين تحمى به الحامات واتاتين المَلّال صانع خبز الملّة وتنانير الخبز[٢]. ومن مآثر طاهر بن الحسين انه رأى يوماً في قصره ببغداد « دخاناً مرتفعاً كريه الرائحة فتأذّى به فسأل عنه فقيل له ان الجيران يخبزون بالبعر والسرجين فقال : ان هـذا من اللؤم أن نقيم بمكان يتكلف الجيران شراء الحبز ومعاناته اقصدوا الدور واكسروا التنانير واحصوا جميع من بها من رجل وامرأة وصبي واجروا على كل واحد منهم خبزه وجميع ما يحتاج اليه فسميت ايامه « الكفاية »[٣].

وعزم احد الخلفاء العباسيين على الشرب يوماً واستنكف من رؤية الرجيع واستنشاقه بين ازهار البستان فزيّنت له انفته ان يستعيض عنه بما لا يخطر الا في اذهان الملوك وهو ما رواه التنوخي قال :

« اراد المقتـدر الشرب على نرجس في بستان في صحن دار من صغار صحونه فقال بعض من يلي امر البستان : سبيل هذا النرجس ان يسمّد قبل شرب الخليفة عليه بايام فيحسن ويقوى فقال هو : ويلك يستعمل « الرجيع » في شيء بحضرتي واريد ان اشمّه . قال : بهذا جرت العادة في كل ما يراد تقويته من المزروع فقال : وما العلّة ؟ قال : لان السماد يحميه ويعينه على النبات والخروج قال : فنحن نحميه بغير السماد . وتقدم فسحق من المسك بمقدار ما احتاج اليه البستان من السماد وسمّد به وجلس يشرب عليه يومه وليلته واصطبح من غده عليه فلما قام امر بنهبه فانتهب البستانيون والخدم ذلك المسك كله من اصول النرجس واقتلعوه مع طينه حتى خلصوا المسك فصار البستان قاعاً صفصفاً وخرج من المال شيء عظيم كثير في ثمن ذلك المسك »[٤].

١) النقائض، طبعة بيروت، ١٦٥
٢) كتاب الحيوان ١ : ١١٦
٣) معجم البلدان ٣ : ٢٥٦
٤) نشوار المحاضرة ١ : ١٤٤

يوسف العفيف وامرأة فوطيفار

نشيد

للشاعر رومانوس المرنم

نقله عن اليونانية وعلق عليه

الاب نيقولاوس قادري قب

توطئة

نشيد طريف ومأساة طقسية رائعة للشاعر اللبناني باللغة اليونانية، رومانوس المرنم، الذي نعتوه ببندار الكنيسة وكنارة الروح وقيثارته الشجية الاوتار.

وُضع هذا النشيد ليوم الاثنين من اسبوع الآلام، وبه تحتفل الكنيسة البيزنطية بعيد يوسف العفيف وانتصاره على المرأة العاهرة.

طرق رومانوس هذا الموضوع التاريخي واستقى صفوته من سفر التكوين[١]. وقد نزع عنه حلته القصصية والبسه ثوباً من الشعر التمثيلي فأبرزه في قالب فني لا يقل روعة وجمالاً عن قصائد اكبر شعراء الانسانية[٢].

سكب الشاعر في قصيدته هذه نبرات من الجمال الساحر ورسم فيها صوراً من الخيال الجري، الزاهر الذي تفرد به عن سائر الشعراء الدينيين في كل العصور. وقد مزق رومانوس بخياله الفني ضباب الوهم، وتطلع الى ما وراء الخيال اي الى الحقيقة الخالدة. ونظر الى تلك العين الازلية التي ترقب الكائنات بنظرتها الحادة المتغلغلة في اعماق الكون والضمير والساهرة ابدا على الخلائق.

---

١) سفر التكوين ٣٩ : ٦-٢١

٢) cf. Edmond Bowy, *Poètes et Mélodes*, p. 367

وكأني بالشاعر الافرنسي ڤيكتور هوغو يتـلاقى مع رومانوس وروحه الرسامة وخياله المبدع على صعيد واحد : ذاك في قصيدة « الضير » وهذا في نشيد « يوسف العفيف » ، على بعد اثني عشر قرناً.

ان روح الشاعر الملهم فوق الزمن والمكان فهي من تراث الازل المتجدد ابداً، وهي نصيبُ لجميع الاجيال التي تعشق الجمال والاتزان والمساوقة . فالجمال الشعري لا يختص بامة دون أخرى فهو جامع شامل لا يتعرف الى الانانيـة العمياء .

وان كان شعر رومانوس من تراث العصور البيزنطية المجيدة، فهو من التراث الشامل . ولكن يحق للبنان ان يفاخر به القسطنطينية لان رومانوس تنشأ على تمتمات الطبيعة الحالمة الراقصة في لبنان، واخذ الموسيقى عن رقصة الامواج على شواطئ بيروت ، واستلهم الشعر من نفحات النسيم والارز في لبنان ، وتغذى بالخيال الواسع الازهر من افق لبنان الخلاب.

ولقد صوّر المرنم الكنسي في هذا النشيد كيف ينحط العهر الى دركات الذل والهوان ، ويسمو العفاف الى ذروة العظمة والبطولة. فمثل لنا الرذيلة باقبح الوانها ، والفضيلة بابهى مظاهرها . يتسلّط الفجور على امرأة فوطيفار فيملك شعائرها ويتولى على جوارحها ، فيلهبها بلظى الشهوة الجامحة ونار الهوى الاثيم. وتتملق العفيف تارة بالتوسلات المذيبة وبالوعود البراقة ، وطورا بالوعيد واقصى التهديد لتستميله الى تحقيق رغبتها ، وهو ثابت الجنان امامها كالطود الراسخ لا يلين له عود ولا تثبط عزيمـه العواصف والرعود ، ولا تخلب لبه الاماني والوعود، فيفلت من يدها مستعيناً بنعمة ربه . وهذا ما عناه شاعر دير الصابغ نيقولاوس الصائغ اذ قال :

« ذرهـا. تشق قميصاً انت لابسه واهرب كيوسف يوماً فاز بالهرب » (١

ما اروع المشهـد الذي يظهر الشاعر فيه الشيطـان مقبلا ليغري المرأة ويحرضها على خداع الفتى وقنصه، فيشير عليها ان تجمل محياها وتتضمخ بالاطياب،

---

١) ديوان الخوري نيقولاوس الصائغ ، بيروت ١٨٧٦ ، ص ٣٣

وتنور جيدها بالقلائد الذهبية، وان تكون صنارة كما كانت حواء في الماضي القديم .

وما اشدّ روعة المشهد الذي يمثل لنا فيه وقوف حكمين بين المتحاربين العفاف والعهر، ومناصرة الملائكة ليوسف في اشتداد محنته، وتأييد الابالسة لمرأة السوء في استغواء يوسف حتى اسفر الجهاد عن نصر العفاف وقهر البغاء . ذلك لان العفيف يضع نصب عينيه تلك العين الساهرة التي ترقب الخلائق طرّاً، فيستمد منها قوة في الوهن، ومدداً في المحنة، وتجلداً في الجهاد، فيولي هارباً من مكيدتها ويفلت من شراكها وهو على يقين بان امرأة السوء وهدة العطب وسم في كأس من الذهب وهي ايضاً :

« جميلة الوجه لكن لا جميل لها تأبى الجميل ولا تولي سوى الكرب »

وان العفاف زهرة تفتحت في السماء ففاح عبيرها في الارض فاعتنقتها الاجيال . فسبحان من يمدّ محبيها بالتأييد ويوليهم النعمة والغلبة وحسن المآل .

نشيد

يوسف العفيف وامرأة فوطيفار[١]

مقدمة[٢]

١

ايها المخلّص ،
أهل الذين تبعوا
آلامك وقيامتك
ان يسجدوا
للعين الساهرة .

مقدمة

٢

• تعالوا يا معشر الاخوة ،
الذين قطعوا
بجهاد رائع
مرحلة الصيام ،
وتاقوا بلهفة
الى بدء آلام الرب

١٠ نضارع جهود
يوسف العفيف
المقدسة ،
ونحن بخوف
من عقم التينة .
لنهدم بالرحمة

---

١) Pitra, *Analecta Sacra*, Parisii 1871, pp. 67-77

٢) لهذا النشيد مقدمتان .

٣) تشير الارقام، على الهامش ، الى ترتيب الابيات اليونانية.

لذة الاهواء ،
حتى اذا ما بلغنا بشوق
عيد القيامة ،
نحرز من العلاء
الغفران فالاطياب
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٣

نحن الذين انضوينا
تحت لواء ملك
يهب جنوده
ملكَ السماوات ،
لنتسربل الفضيلة
عُدَّةَ النفوس الراسخة
لنحارب بها
الخطيئة المدوة .
كيف نفهم الفضيلة ؟
هي الحكمة ،
هي فن الفنون ،
وعلم العلوم .
بها تُقاد النفسُ
كما بسلّم ،
ويُصعد بها
الى علوّ الحياة السماوية .
فتعلم الناس
الفطنة والشجاعة ،
والعفة والعدل[1] .
لنتدرع بمثل هذه الأسلحة
ونستمد نعمة المسيح ،
فانه يولي محبيه
اكليل الظفر على الأعداء ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٤

اذا رأيتم موافقاً
فلنسرد على الملا
سيرة يوسف
لنفهم المجد السني

١) سفر الحكمة ٨ : ٧

الذي اتصف به
هذا الحكيم ،
وهو قدوة حية
للجميع .
فلنبادر الى احراز
حياة عفيفة بالقناعة .
ان ثار الحسد
استفزت اخوة يوسف
فباعوه عبدًا[1] .
وما استعبدته
الاهواء يوماً
فقد احرز الحكيم
نفساً حرّة ،
وتسلّطعلى الشهوات الجسدية
ولم تضعضع ثباته
تملقاتُ المرأة ،
بل أفلتَ
من ملاطفاتها .
لفظت المرأة
كلمتها كالعاصفة ،
وفيها سكبتِ المسكرَ
كالسيل ،
لتهدم بيت العفاف ،
ووعدته بغمرات
الخير والإسعاد
واما يوسف النبيل
فكان بعفافه
كالطود الراسخ ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع.

٥

كان هذا العفيف
بالجسد مستعبدًا ،
وبالروح حرًا ؛
ظهر في الحُلم ملكاً ،
وباليقظة عبدًا يباع .
ومن كان يُظن عبدًا
قد استعبد المستعبِد .
اكرمه السيد ،

---

(١) سفر التكوين ٣٧ : ٢٧

وتعشقته السيدة،
عاطفة السيد نبيلة،
ونيّتها اثيمة.
أحبَّ الرجلُ يوسفَ
لعفافه
وهامت المرأة بالعفيف
لعهرها.
ابهج السيدَ
صلاح سيرته،
واستغواها
جمال وجهه.
سلّطه ذلك على بيته،
وبذلت هذه
جسدها للفجور.
نظر اليها يوسف
بازدراء،
وتمثل هول الدينونة،
والعين الساهرة
ترقب الجميع.

٦

امَال الهوى الاثيمُ
مجرى الامور
الى نقيضها:
فتسلط العبد
على الاهواء والملذات
كسيد مطلق،
وامست السيدة
للخطيئة عبدة،
فمن اقترف الخطيئة
كان لها اسيرًا،
واعتد يوسفُ
امور الدنيا كالمنام،
وجذبتِ المرأةُ
اليها العفيفَ
بُغيةَ استغوائه،
فخاب ظنُّها.
رَمَت نفسها
بنصال من نار.
وكما كان محيًا يوسف
يشعّ جمالًا،

كان قلب هذه
يحلولق كالليل التام .
وكما استاذت هي
نيران الهوى

أطفأ هو بعفته
نارًا لا تطفأ ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٧

حين تسلّط
جنونُ اللذة
على قلب المصرية
جرحه جرحاً خفياً ،
لقد رضيت
جروحاً ثخينة ،
وحمقها ظنّت الغبيّة
آثار الجروح لذة .
تناولت بناظرها
من كنانة العفيف
سهاماً جرحت قلبها ،
حين ظنت الشقية
ان الجرح لذة .
فالهيام الذي لا يُغلب

اظلم رشدها ،
ولم يخف عشقها
ولا مرارتها
من حضور يوسف ؛
وكانت تتحرّق
من غيابه اشد التحرّق .
ولما انتصب امامها
تملقته بالكلام العذب ،
مجتهدةً ان تنزع
منه الشجاعة .
اما العفيف فكان
يسعى الى صدّها
عن قصدها الأثيم ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٨

ها قد أقبل الشيطان ،
متقنعاً بقناع الزنى ،
ليؤازر المصرية
فقال لها :
تشجعي ، يا امرأة ،
كوني صنارة مغوية ،
كصنارة الماضي القديم .
اعدّي الطعم ،
وأقنعي الفتى ،
وجمّلي محيّاك ،
وتضمّخي بالعطور
بكل حذق ؛
ونوّري جيدك
بالاطواق الذهبية ،
والبسي كلّ ثوب
غالي الثمن .
تضمّخي بالاطياب الفوّاحة
فتسترخي قوى الشباب ،
لانهم سوف يخوضون
معارك حامية الوطيس .
يزفّ هو اليك العفاف ،
فزفي انت اليه الفجور !
حذارِ ان تُغلبي
فنسخر منك !
انه سيقول لك :
لن افعل ما تريدين ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٩

رأى العفيف امامه
منظراً غير عفيف ،
فابتعد نافراً منه .
رأى وجهاً بهيّاً
فادرك مراها الخداع ،
وأفلت مسرعاً ،
هارباً منها ؛
كأنها الافعوان المتخفّي .
واذ عزّ على الشقيّة
امتهان الشريف لها ،
نضت نقابَ الحيا عنها
وقد برزت له بوجه

من الفحشاء منتقب .
الا انها استدعت اليها
امرأة لعوباً لتلاطفه ،
ثم عرضت نفسها ،
بأساليب الخداع .
وكان لسانها مرهفاً
احدَّ من السيف مضاءً ،
فتمسكت بقميصه
بُغية الإثم ،
وخاتلته بفنونها الخدّاعة ،
فما استطاعت التغلّب
على رشده ؛
وكان يردّد القول :
لن افعل الأثم القظيع ،
واني ابغض
المعاصي على الدوام ؛
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

١٠

يا لمنتهى الجنون !
جنون المرأة
الذي لا يُغلب ،
اذ تلهّبت بالنار
هُياماً بيوسف !
رأته غير مكترث
لتمليقاتها ،
وغير خاضع
لاهواء الشباب ،
فصرخت به :
انت عبدي المُشترى ،
اجل باعوك لي
لكي تتعبّد لي ؛
وانا اقتك سيّداً
على كل بيتي ،
فكن انت سيّداً
عليَّ ، انا السيّدة .
انا لا احسبني ذليلة
اذا تذللت لك ،
اذ لا فرق
بين السيادة والاستعباد ،
ونعرف نحن ان آدم

ابو الاباء جميعاً ،
وان حوّاء
امّ الامهات .
فنحنُ كلنا متشابهون
لاشتراكنا في طبيعة واحدة .
لا تخشَ اتيان الاثم ،
ولا تُذعن لقول
من يقول :
ان العين الساهرة
ترقب الجميع .

١١

لماوقفتُ
على اخلاقك المتزنة
آثرتُك على
رفاقك العبيد ،
لانك احرزتَ
الوقارَ في عينيك
وفي شفتيك
ــ كما احبّ ــ
وحزتَ كلّ شعور سامٍ
ــ كما اريد ــ
هلمَّ استمع ندائي
فابدي لك مرامي :
اني أنثر
عليك الخيرات ،
ان صدّقتني ،
وسأُكافئك
بالمواهب الوفيرة ،
منهضةً اياك
الى مستوى حياتي ،
فتصبح حرّاً
وأوافيك بلهفة ،
ولن تظلّ عبداً ،
اذا اقبلت اليّ بعُطف .
وان لم تصدقني
تعرضت بعدل
للنوائب والفواجع ،
وانا اقيّدك ،
يا عزيزي ،
بالسلاسل .
وادفع بك الى خدمي .

فلا تسعَ اذن
الى حتفك بظلفك .
وانت على غير حقّ
فيما تعتقد
ان العين الساهرة
ترقب الجميع .

١٢

أنهت المرأة وعيدها،
وما استطاعت
ان تدكّ البرج المنيع
بتمليقاتها .
فظلّ هداه نيّرًا
حافظاً مجد العفاف بهيًا .
ابصر تلك الغبيّة
تترصده هنا وهناك ،
وتبعد عن المنزل
جميع الخدم .
ولما انفردت به ،
كلمته على حِدة
وقالت :
حتّامَ أحتملك
ايها المتمرّد ؟
قد حان الوقت
لأتمتع بلذة شهوتي ،
فليس هنا احد
من رجالي .
ولا يصدّني شيء
عن اتمام رغبتي .
رشقته بسهام نارية ،
فما احرقته .
وقد تخاص منها ،
ووجهه يشعّ بالعفاف ،
ويطفىء لهيب شوقها
بقوله :
ان العين الساهرة
ترقب الجميع .

١٣

قالت المرأة
الحمقاء هذا
لخداع الفتى .
واذ ذاك اقتحم

المجاهدُ الصنديد
ميدانَ التجارب
ليقاوم العدوَّ المحتال.
فوقف حكمّان
بين المتحاربَين:
العفاف يؤيّد يوسف،
والفجور يستفزُّ المرأة.
فانتصب العفيف المجاهد
ازاء الفاجرة،
والعاهرة تحدّق اليه
وتداعبه،
وراودته عن نفسه.
فانتصر الشريف
على عدوّته المحتالة.
وكانت الملائكة
تناصر العفيف،
والشياطين
تناصر المرأة.
والرب ناظر من العلاء
ليتوّج الظافر
باكليل النصر،
لانَّ العين الساهرة
ترقب الجميع.

١٤

واستأنف يوسف
كلام الطهر،
وهتف بالمرأة العاهر:
انا عبدك المبيع،
اقاسي هذا الظلم حسداً،
ولو كنت مبيعاً بالجسد،
فانا حرّ بروحي.
انه ليعسر على اللسان
والقلم ان يفسدا
الاخلاق النبيلة،
وكما ان الضباب
اذا حجب الفضاء
لا ينقص
من بهاء الشمس؛
وكما ان السحاب يتبدّد
حين تسوقه الرياح،

وبعد ذلك تضيء
الشمس ببهاء ؛
هكذا ستزول
عبوديتي هذه ،
وتشرق حريتي ،
فاسود على اصقاع
مصر كلها ،
لاني أنفتُ الاستعباد
للاهواء المخجلة .
هذا ما تنبأ به عني
من قبلُ
من وحدهُ يعرف الخفايا
ان العين الساهرة
ترقب الجميع.

١٥

سمعت المرأة الفتى
يخاطبها بتلك اللهجة ،
فعمدت الى تمليقه
فقالت :
انت ما تخلقتَ
باخلاق العبيد يوماً ؛
وقد عرفت ذلك
من مزاياك.
فانا على يقين
من هذا ؛
واشهد لك
بانك تقوم
بهمة الاشراف.
ووُجدتَ بغير عيب
في تصرفاتك كلها ،
ولم تنسَ الى
رفاقك في العبودية،
فانت اذن
من ابناء النبل
والشهامة .
وستأتي اليَّ
فانثر عليك
خيراتي الكثيرة.
وبأمري تخضع لك
بلاد مصر .
فاقبلني انا سيدتك ،

اسيرة هواك .
اقبلني ،
لتتمتع بفرح متبادل .
ولا تعذّبني ،
بقولك من جديد :
ان العين الساهرة
ترقب الجميع .

١٦

استمعَ يوسف
الى خطاب الفاجرة
فقال :
لَحقٌّ ما تقولين .
اني فرع دوحة صالحة ؛
لكني اراك
فاقدة الحجى ،
ولذا اهرب
من الحياة معك .
واذا ما فقد المرء
عقله ،
قضى حياته
خاضعا للاهواء ،
كالبهائم .
فلا ألينُ
لشهوات الجسد ووثباته ،
بل اضبطها بالعفاف ،
وحتى الساعة
لا ازال طاهرًا
من اثم كهذا ،
فلا ادنّس جسدي
بالعهر ،
فمن الآثام الثقيلة
ان يتعدّى الانسان
على زوجة ذات بعل ،
واكثر فظاعةً عندي
ان ادنس مضجع سيدي ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع

١٧

اجابت المرأة
العفيفَ: .
اسمع، يا فتى،
زوجي - كما تعلم -
خاضع لارادتي،
وطوع يدي كلّ حين،
وانا قادرة
على الاساءة اليك،
اذا قدمتك اليه
من جديد..
ان له فيك آما لا حسنة
لمرفته السابقة بك.
وهو ايضاً يحبني
كما يحترمك،
اذ اني متعقلة.
فحتى الان
لست ملومة،
وقريني، كما قلتَ،
يثق بي.
فلا عين هنا ترقبنا؛
فلمَ تنفر مني،
ولا تجيب الى مطلبي؟
اما تأخذ بعين الاعتبار
رغبتي؟
فما هي الجدران
تسترنا من كل جهة،
وتظللنا القباب من فوق،
فلا تخف
اذا فكرت
ان العين الساهرة
ترقب الجميع.

١٨

اجتهد العفيف
ان يردع تلك الشقيّة،
فأردف يقول:
لا تشيري علي بالاثم،
كما اشارت حواء
به على آدم!
اغربي عني!
فلن آكلَ من شجرة

فيها الموت الزؤام !
ففردوسي العفاف
ينبت الطيّبات.
وايّ شيء
اطيب من العفاف ؟
فالذين يحافظون عليه
يتلألأون مشرقين
كالملائكة .
ولو كان سكان
هذا البيت
لا يرون عملنا وهم بشر ،
فالبشر لا يدركون الخفايا،
الا ان ضميري
يحكم عليّ
لا تعتقدي اني
اقترف اثماً كهذا .
واذا لم يكن من رقيب
ليوبّخ الزاني،
فديّاني لا يحتاج
الى برهان ثابت .
فاني ارهبه على الدوام ،
واهرب من ملذات
الحياة الاثيمة ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع.

١٩

واذا جاريتك
على فكرتكِ
بان السجوف تظلّلنا ؛
نحن الخطاة ،
ولا عين هناك
ترقب ما تريدين
ان تصنعي من الاثم ،
فاخبريني ، يا وقاح!
اين نهرب
ممن يسبر الخفايا ؟
واذا كان رجلك غائباً ،
فديّاني ليس بغائب !
وان لم يرني
صاحب السرير ،
فعالم الخفايا يراني .
فكيف تفلت ممن

يسبر القلوب والكلى؟
فالسماء تغضب علينا،
وعبثاً نستسلم
الى الجدران،
فهي لا تقينا من الدينونة.
فالقباب السماوية
لا تخفي الزناة
عن عالم السرّ والعلن.
فكلّ شيء
عار ومكشوف لديه.
انا لا آتي الشر امام الرب،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع.

٢٠

٥٦١ اشتعلت المرأة
الحمقاء غضباً
من هذا الكلام،
ووثبت الى العفيف،
وتمسكت بردائه،
وجذبته اليها بشدة
وهي قائلة:
استمع لي، يا حبيبي،
وهلمّ الى سريري!
لقد ساء فأل المصرية،
وناصرت النعمةُ العفيف.
هتفت المصرية من جديد:
هلمّ الى سريري!
وقالت النعمة من العلاء:
اسهر معي!
لقد قُهر ابليسُ،
والمرأةُ معا،
وطوّقتِ النعمةُ
جيدَ يوسف
ببهاء العفاف
المجد الاشراق،
وقدم الطهرُ ليوسف
ممتلكات المرأة،
وقال له:
لقد شقّت قميصك،

ولكنها لم تدنس عرضك،
ولا جسدك العفيف !
لقد نال المجاهدُ
اكليلَ الظفر،
وثوبَ عدم الفساد
من يد واضع الجهاد،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

المدرسة اللبنانية

في ظلال المعابد والاشجار

تاريخها وتقاليدها ، واساليبها في التربية والتعليم

في خلال القرن التاسع عشر

بقلم لحد خاطر

توطئة

مما نباهي به نحن معشر اللبنانيين أنَّ اسلافنا الفنيقيين الذين توطنوا قديماً ارضاً نتوطّنها نحن الآن ، والذين ما زال يعيش حتى الآن فيما بيننا فئات من ذراريهم واحفادهم ، كانوا اول من اتحفوا العلم بما لا قِوام له بدونه ، الا وهو «حروف الهجاء» المعدودة فيه بمقام الركن من البناء. تقوم عليه جدرانه ويبرز هيكله عالياً مشمخراً.

تلك العبقرية التي كانت للسلف ما زالت تظهر في الخلف على توالي الدهور. فقد اعطى اللبنانيون الدليل عليها حقبة بعد اخرى ، اذ انهم برزوا ويبرزون امس واليوم في مضمار المعارف والمقدرة الخاصة على تحصيل اللغات وتفهم قواعدها واستسهال مزاولتها كتابة وحديثاً ، على تعدد لهجاتها وتباين اصولها . فقد ظهر منهم في القديم علماء اعلام خلّفوا التآليف القيمة في الفنيقية واليونانية واللاتينية والسريانية ، الى ان جاء العرب فاقبلوا على اتقان لغتهم ومشوا في طليعة العاملين على احيائها . ثم اختلطوا بعد ذلك بالامم الغربية من ايطاليين وفرنسيس وانكليز والمان واميركيين فجاروهم في حذق لغاتهم ووضع المصنفات الحسنة فيها ، مما اعلى قدرهم في عالم الثقافة وجعلهم على قلة عددهم من اهم رسل العلم والحضارة في المعمور.

اطوار المدرسة في لبنان

ولقد مرت على المدرسة في لبنان اطوار عدة تقلبت فيها بين الخمول طورًا، والازدهار تارةً. فكانت تزدهر في ايام السلم وعلى عهد صلحاء الحكام، وتخمل حين تنشب الحروب وتكثر الاضطرابات، فينصرف الناس عنها الى الاهتمام بسلامة رؤوسهم ووقاية ارواحهم.

ويُستنتج مما خلفه الفنيقيون من الكتابات ان ناشئتهم كانت تتعلم لغتهم وتتخرج في آدابها في مدارس عامة كان يدرّس فيها اساتذة من مواطنيهم، وبالارجح من كهنتهم.

وفي العهد الروماني، ازهرت العلوم وتوافرت المدارس واشتهر منها مدرسة الفقه في بيروت، ومدرسة الآداب في جبيل، ومدرسة الفلسفة في صور.

وبعد انتشار النصرانية اخذ رجال الدين يعلّمون العلم مع اصول الدين في اديارهم ومعابدهم. ولكن الحروب لم تلبث ان اخذت تدور رحاها فطمست آثار العلوم زمناً، الى ان جاء الصليبيون فعادت الى بعض الانتعاش. لكنها لم تلبث ان رجعت الى الخمول في عهد المماليك وصدر العهد العثماني، حتى اذا فتحت ابواب معاهد رومية في وجه الناشئة المارونية، أخذ العائدون منها ينشرون في لبنان ما اقتبسوه من معارف. ولمّا طلع القرن التاسع عشر، أصبح حال المدارس على ما نحن واصفوه في مقالنا هذا الذي خصصناه بايضاح حالتها ونظمها وتقاليدها في هذا القرن.

المدرسة بين الامراء ورجال الدين

كانت المدرسة اللبنانية، في اوائل القرن الماضي، تكاد تنحصر بالمعابد والاديار. وكان العلم يكاد يختص ببعض الأسر يتدارسه افرادها بعضهم على بعض ويستخدمونه في مراسلات ذوي الاقطاع، خاصة الامراء، وضبط حساباتهم، وخدمة اغراضهم.

اما هؤلاء، فكانوا يغضون عنه ازدهاءً بعدم حاجتهم اليه، اعتباراً ان نصيبهم

من الحياة انما هو تعلم فنون الفروسية والتروّض على مجالدة الابطال في ساحات القتال واتقان انواع الصيد. ولم يكن لبناتهم ان يفكرن في تحصيله لان البنت وجدت في نظرهم لخدمة المنزل وتربية العيلة، لا « لتقعد في الديوان »

ومن اغرب ما حدثني به بعض الشيوخ ان الاقطاعيين من الامراء والمشايخ كانوا، في القديم، يعتبرون ان من العار عليهم — وهم ارباب السيف — التنازل الى احتراف حرفة الكتاب والمعلمين من ارباب القلم، لان مقامهم هم ارفع من ان يتدنى الى مقام اولئك الذين كانوا وقوفاً بابوابهم لخدمة مصالحهم والائتمار باوامرهم، وان من العيب القول عن بناتهم انهنّ يعرفن الكتابة لئلّا يُظن بهنّ استخدامها في ما قد يحيد بهنّ عن جادّة الشرف والنبل.

على ان كثرة احتكاكهم بالفرنجة لم تلبث ان حولتهم عن تلك الفكرة الخاطئة ودفعت باللبنانيين عامة الى الاقبال على انشاء المدارس لتعليم اولادهم ذكوراً واناثاً. وكان في مقدمة القائمين بنشر هذه الحركة المباركة في البلاد الاساقفة والكهنة والرهبان والمرسلون.

مدارس « تحت السنديانة »

وقد أنشئت في صدر القرن الفائت الى جانب المدارس التي كادت تكون كلها اديارًا رهبانية مثل عين ورقة، وعين تراز، ومار يوحنا مازون، والرومية، ومار عبدا هرهريا، وعينطورا، وريفون الخ . . . مدارس اخرى صغيرة في القرى، عهد بالتعليم فيها في الغالب الى كهنة الرعايا، او الى بعض مشايخ الخلوات والقائمين على المعابد من مختلف الطوائف، وربما سُلّم بعضها الى نفر من العالمين. واكثر ما كان يتخذ هؤلاء من ذوي العاهات والمشوّهين ممن كانوا لا يقوون على الارتزاق من عمل آخر يقتضي نصباً.

هذه المدارس جعل مكانها، في ايام المطر والبرد، الكنيسة او الجامع او الخلوة او الكنيس، وفي ايام الصيف، ما يقوم الى جانب هذه المعابد عادة من سنديانة او جوزة او بلوطة «مزلولة». لذلك اطلق عليها اصطلاحاً، ومن باب التهكم، اسم «مدارس تحت السنديانة.» ولم يكن لطلاب تلك المدارس مقاعد ولا مناضد

تنبيه هام

وقع سهوٌ في ترقيم صفحات الملازم الثلاث الاولى من هذا العدد (من ص ١ الى ٤٨) وحقها ان تكون من ص ١٤٥ الى ١٩٢ . فالمرجو من القرّاء الكرام ان يتولّوا التصحيح بانفسهم .

لجلوسهم ، بل كانوا يفترشون فيها الحضيض على مدماك من الحجارة او على قطع من الخوص او الحصير صيفاً ، ومن جلود الاغنام شتاء . وهذه القطع لم تكن للمدرسة ولكن كان كل من الطلاب يأتي بواحدة منها لنفسه من منزله .

اول عهد الولد في مدرسة القرية

اللوحة والمدلّ

كان الولد في الحيّ او القرية ، اذا بلغ الخامسة او السادسة من عمره ، أُرسل الى المدرسة ، او قادته اليها امه لاول مرة بعد ان تتملقه بحلوان ، واوصت به المعلم فيرحب به هذا ملاطفاً . ويتركه الى ان يستأنس ويطمئن ، فيكتب له حروف الهجاء على ورقة او قطعة من مقوّى « كرتون » يُثبتها في شقّ عود بارز من الوراء لتستند اليه فلا تلتوي او تتكسر ، ثم يُجدّد له عود ليدلّ به على الحروف حرفاً حرفاً عند قراءتها وتبيّن نقطها وحركاتها ومواضعها وهو المسمّى بـ«المدلّ». اما العود حامل الورقة فيستعمل لها بمثابة مقبض تمسك به فتظل نظيفة وتوقى من التمزق.

وقد تُكتب له تلك الحروف على لوحة من خشب ، بعد صقلها بالنحت ، وثقبها من طرفها فتُناط بعنقه بخيط فلا تضيع الى ان يحفظ ما فيها.

الابجدية الفينيقية وبعض الآيات والصلوات

ومن ثم تُكتب له ، على الاسلوب نفسه ، الحروف الابجدية الموروثة عن الفنيقيين المؤلفة من كلمات « ابجد . هوز . حطي . كلمن . سعفص . قرشت . ثخذ . ضظغ » فيقرأها الصغير تهجئةً ودرجاً او « كرجاً » الى ان يحذقها ، ثم ينقل الى بعض الصلوات والآيات . من ذلك ان الكهنة في الجهة التي نشأنا فيها من مقاطعة الشوف كانوا ، في عهد حداثتنا ، ينقلون الولد من الابجدية الى

آية التقديس : « قدوسٌ الله . قدوسٌ القوي . قدوسٌ الذي لا يموت . ارحمنا يا رب ارحمنا . وهلمّ لاغاثتنا . » ثم يعلمونه بعد ذلك : « ابانا » و « السلام » و«نؤمن» قانون الايمان ، وبختامها يختم الطور الاول من علمه.

تعليم قراءة « الكرج » ، والخط ، والحساب

وبعد هذه المرحلة الاولى من الدراسة يُحوّل الولد عند المسيحيين الى كتاب المزامير المفتتح بكلمة « طوبى للرجل » . لذلك كان الاولاد عهدئذٍ يباهون بانهم بلغوا في علمهم الى « الطوبى » ، او بانهم تعلموا « الطوبى » اي سفر الزبور لداود . فيبدأه التلميذ تهجئةً حتى اذا امعن فيه اقتصر على قراءة الدرج صرفاً ، وعندئذٍ يُضاف له التعليم المسيحي الصغير المبتدئ بسؤال «امسيحي انت؟ والله كم واحد؟» وقد شاعت عند اللبنانيين ، حول الجواب على هذين السؤالين ، طرائف مضحكة . ويحوّل الولد عند المسلمين الى القرآن . ويبدأ بالبسملة والحمدلة تهجئةً ثم درجاً الى ان يحذق بضع صفحات فيكتفى له بالدرج وحده .

بعد ذلك يُعطى الاولاد الواحاً واقلاماً حجرية سوداء يمرّنون فيها على كتابة الارقام الحسابية ومراتبها ، والقواعد الاربع وجداولها ، وعلى رسم حروف الهجاء ، تحيئة مفردة فرفيمة مجموعة . وقد كانت للالواح اطارات خشبية تثقب الخشبة العليا منها ويمرّ بثقبها خيط يحمل القلم مع اسفنجة تُمحى بها المخطوطات لاستبدالها باخرى . ولا يخفى كم كان في استخدام تلك الاداة الكتابية لصغار الطلاب من اقتصاد في اثمان الورق والدفاتر والريش التي طالما يشكو منها الآباء في هذا العهد .

وبعد ان يمرّ على الولد عهد يجيد فيه الخطّ والحساب على اللوح الحجري ، ينقل الى مزاولتهما على الورق باقلام القزاز والحبر على الوجه التالي :

ادوات الكتابة

كان « فكّ الاسم وتعليقه » في تلك الايام عند اللبنانيين بمثابة شهادة « السرتفيكا والبريفه » عند لبناني اليوم ، فكان الاب اذا جاءه ابنه ذات يوم يطلب منه ادوات للكتابة ، يمتلئ قلبه فرحاً ويبادر الى اتيانه بالمطلوب .

الورق

فكان الورق من « العبادي » الابيض الصفيق، وكان «الماعون» منه يؤلف من مئة طلحية عشرها « كف » والطلحية الواحدة تطوى مربعة فتصير ذات ثماني صفحات او اطباق ، فاذا جمعت بضع طلحيات بخيط ألفت دفتراً كان يقدم للاستاذ ، فيسطر في راس كل صفحة منه « قاعدة » من خطه في سطر واحد يضرب تحته خطاً أفقياً ، فيحذو التلميذ بعده حذو القاعدة في سطور متكررة الى ان يختم الصفحة ، وعندئذ يعرضها على الاستاذ ليراها ويصلح المغلوط من حروفها ، وينبهه الى تقويم المعوج من سطورها ومجانبة تلطيخ الصفحة بالوسخ وبقع الحبر. وكثيراً ما كان المعلم ياخذ انامل الولد المبتدئ بيده ويجري بها على القرطاس ليفقهه في كيف يكوّر المدورات ، ويمدّ المستطيلات من الحروف ، ويرصفها رصفاً قويماً الواحد في حضن الاخر.

القاعدة

واعتاد الاساتذة ان يختاروا لنصّ القاعدة إمّا صورة مكتوب ممّا كان متعارفاً في تلك الايام : « جناب الاجل الامجد كريم الشيم سنيّ الهمم — غب افتقاد خاطركم والاستفحاص عن غالي سلامتكم . . . الخ » ؛ وإمّا صورة سند دين « كمبيالة » : « غب مرور سنة كاملة تمر من تاريخه ادناه ادفع لامر فلان المبلغ المرقوم اعلاه » ؛ وإمّا صورة صك بيع : « سبب تحريره انه قد حضر مجلس عقده فلان الفلاني وباع من الحاضر معه فلان الخ . » فيتخذ التلميذ من هذه الصور واشباهها وسيلة لاتقان خطه وفي الوقت نفسه لتعلم اهم ما قد يحتاج اليه لتدبير شؤونه البيتية في قابل ايامه.

الدواة والمحبرة

كانت الدواة لذلك العصر تؤخذ اما من الزجاج ، واما من الخزف الاصفر او الابيض ، واما من النحاس ، وهذه الاخيرة كانت اكثر استعمالاً من غيرها لصبرها على البقاء وسلامتها من الكسر بين ايدي الصغار . وكانت تؤلف عادة من قناة مستطيلة مجوفة ذات باب تحفظ فيها الاقلام من القصب او الغزّار ، ومن مستودع للحبر منوط بها عند راسها من جهة الباب يدعى « قجة » او « كجة »

بباب ايضاً توضع فيها « الليقة » من قطن او حرير منفوش تتشرب الحبر فلا يُراق على الارض. وكانت الدواة النحاسية هذه تحمل مدسوسة قناتها في الزنار فيباهى بها على انها شعار العلماء والمثقفين.

اما الاقلام فتُبرى بان تحدّد من جانب واحد يشقّ في الوسط فيشرب شقها الحبر، ويُقطّ راسها قطاً مائلاً رفيعاً او ثخيناً حسب الطلب. وقد قال الشاعر في القصبة التي تؤخذ منها الاقلام :

ويحاً لرزقِ الكتبةْ ويحاً له ما اصعبَهْ
ويحاً لرزقٍ يُرتجى من شقّ تلك القصبَهْ

الحبر

كان الحبر الواناً كما هو اليوم . فالاسود للمتون والكتابات الرسمية المعدّة للحفظ او التقديم للحكام والرؤساء وذوي المقامات ، ويؤخذ غالباً من السناج بعد ان يُضاف اليه قليل من السكر والصمغ العربي ليظهر لماعاً زاهياً ، اما الحبر الملوّن فكانوا يستخرجونه من بعض الاعشاب ، او يشترونه جامداً او محلولاً من سوق العطّارين. ولم يكن يُستعمل الا لعناوين الكتب المنسوخة او رؤوس ابوابها او في الكتابات غير الرسمية مثل رسائل الاهل والاصدقاء والتعليقات الشخصية .

المرملة

المرملة وعاء للرمل ، كانوا يأخذونها من الخزف او الصفيح ، وفي غطاها الاعلى ثقوب يرشّ منها الرمل الناعم الطبيعي او الملوّن على الكتابة الطرية فينشفها مستعاضاً بـه عن الورق « النشّاش » المستعمل اليوم . ومنهم من كان ينشف كتابته اما بالنار او الشمس واما بالرماد او التراب الناعم يرشّها بانامله بدلاً من الرمل.

طريقة التدريس

في القرى المسيحية كان الطلبة يجتمعون صباحاً في الكنيسة لسماع القداس وخدمة الكاهن ، ومنها يخرجون في صف او صفين سكوتاً مطرقي الرؤوس مكتوفي الايدي الى مكان المدرسة حيث تبتدئ الدروس وتختم بالصلاة ، وتجري باصوات مرتفعة تؤلف منها جلبة تصمّ الآذان . ومن كان اصبر على مداومة

الدرس بالصوت العالي كان عمله اوفر دلالة على اجتهاده، واشدّ اثرًا في كسب عطف المعلم ونيل المكافأة منه من ايقونة او صورة او سماع كلمة ثناء مثل «براڤو» او «عفارم»، واذا سكتت الجلبة وخفتت الاصوات، صاح المعلم بطلبته معنفًا وهزّ لهم القضيب مهددًا.

ومتى حان زمن التسميع، تقدم الطلاب صفوفًا او فرادى من المعلم فتلوا عليه امثولاتهم. فينقل «الحافظين» منهم الى سواها، ويأمر غيرهم بمراجعتها ادوارًا معدودة او يؤجلهم فيها الى تسميع آخر. وربما عهد الى الطلبة الاقوياء بتدريس الضعفاء فيوفر عن نفسه بعض العناء. وقبل الظهر يطلب اليهم «ان يعملوا» «هوشة الفلّة» اي مظاهرة الانصراف. وتكون في الغالب دراسة الصلوات والتعليم المسيحي. ومتى لامس نور الشمس حائط الكنيسة الغربي يكون الظهر قد حلّ موعده، وحان زمن الانصراف الى الغداء. فاذا تأخر الاستاذ عن صرفهم صاحوا كلهم بصوت واحد: «يا معلم حلّنا والّا منهرب كلنا» فيجيب آخرون ويكونون عادة من المجتهدين: «يا اولاد ما بحلّكم والعصا تلتّكم»

وبعد الظهر تجري الدروس على هذه الوتيرة الى ما قبل الغياب بساعة فينصرف الطلبة الى منازلهم بعد ان يسمعهم الاستاذ عظة صغيرة يأمرهم فيها بان يحافظوا على نظام الصف في الطريق ويكونوا عاقلين في المنزل مطيعين لوالديهم محبين لاخوتهم الخ...

ختام الدروس

كان الولد عند الموارنة اذا ختم درسه بالعربية، نُقل الى السريانية ليساعد الكهنة في الكنيسة بالصلوات الطقسية، لا سيا بالوقوف معهم الى جانب المقرأة «القرّاية». وهو مما اعتادوا المفاخرة به وربما علم طلبتهم الخط بالسريانية للاشتغال بنسخ الكتب البيعية الذي كان لمزاوليه مورد رزق ذا بال.

ولقد كان «لختم العلم» في مدرسة القرية طريقة من الاعلان يمكن عدّها بمثابة الشهادات التي تمنح الآن من جانب المدرسة او الحكومة. كان المعلم اذا اعتبر التلميذ منجزًا القدر من العلم الذي يدرسه في مدرسته، أبلغ الامر الى اهله

مع نفر من اترابه بصورة « بشرى غير عادية » فيوثق هؤلاء رفيقهم الخاتم علمه بزنار ، او بقطعة حبل صغيرة « مرسه » ويقودونه بزفة الى منزل والديه حتى اذا دخلوه صاحوا بملء افواههم : « يا من يعمل معنا معروف ويفك هالمكتوف » فيستقبلهم الاهل بالفرح ويبادرون الى فك وثاق الولد ، وهم يغمرونه بالقبلات والتهاني . ثم يوزعون حلوان الختم او فكاكه على اترابه من مال او نقل ، ويبعثون بالهدايا الى الاستاذ من دراهم او حلويات او اقمشة ، ويدعونه الى وليمة تكريمية يقيمونها له في منزلهم .

ختم الله على قلوبهم

اما عند المحمديين فقد كان الاصطلاح ان الطالب متى انهى سورة آل عمران فقد ختم القرآن وبختامه تكون خاتمة علمه . وعندئذ يومئ الاستاذ الى نفر من رفقائه ان يقفوا وراءه ، وهو يتلو السورة ، فاذا بلغ فيها الى الآية القائلة : « ختم الله على قلوبهم » خطفوا له طربوشه او عراقيته عن رأسه واسرعوا في العدو الى منزل والديه وهم يصيحون مادين اصواتهم : « ختم ! ختم ! » فبشروهما بالختمة ونالوا منهما الحلوان ، وهو في الغالب ملء الطربوش ملبساً او قضامي او غيرهما من انواع النقل فيأكلون منه ويحملون الباقي الى رفاقهم . وعند المساء يدعى الاستاذ الى العشاء في بيت التلميذ ويقدم له البخشيش او الحلوينة .

وبعد هذا الختم يترك التلميذ المدرسة لتعلم صنعة او لمساعدة والديه في كسب رزقهما بما يزاولان من اعمال .

اجرة المعلم

لم يكن لمعلمي المدارس القروية في القرن الغائت مرتبات محدودة ، وانما كان ذلك يترك للعرف المحلي ولسخاء الاهلين وللقيمة الشرائية للنقد . اما ما كنت اسمعه في طفولتي من شيوخ ناحيتنا عن هذا الامر فخلاصته : ان الآباء كانوا يؤدون للمعلم عن ولدهم اجراً شهرياً قدره بشلك واحد (ثلاثة غروش تركية) في السنة الاولى ، وبشلكين في السنة الثانية ، وثلاثة بشالك في السنة الثالثة فما

بعد ، هذا فضلاً عن هدايا الاعياد والمواسم وتقادم السبتية (اي تقدمة يوم السبت) آخر الاسبوع ، وتكون عادة من الخبز والبيض والالبان . اما هدايا المواسم فتكون شيئاً من الغلال عند جنيهـا كاكليلة من الفيالج عند قطاف موسم الحرير ، وقدر من الزيت او الدبس او الزبيب او التين الناشف او غير ذلك من موارد الارض والماشية عند حصولها.

العقوبات

كان الاساتذة في ذلك العهد يعاقبون المذنبين من طلبتهم بالضرب بدليل القول المأثور عن ألسنة الطلبة مما يجري الآن مجرى المثل للدلالة عـلى حلول الضنك محل الرخاء : « راح العيد وفرحاته وإجا المعلم وقتلاته »

وكان الاهلون لا يتذمرون من ذلك الضرب بدليل العبارة المأثورة كانت تقولها الام للاستاذ حين تأتيه بولدها الى المدرسة : « اللحم لك والعظم لي » ومعناه اذا كسل ابني او اذنب فاضربه الى ان ينتثر لحمه فلا يبقى منه الا العظم . وما من ريب في ان ذلك ناجم عن رغبتهم في التهذيب مما كانوا لا يرون اليه سبيلاً الا بالضرب عملاً بقول الكتاب : « من احب ولده فليهيّئ له القضبان حزماً حزماً . »

بيد ان حضّ الاستاذ على نثر لحمان الولد عقاباً لم يكن المقصود منه الا ارهابه لئلا يطمعه الحنـان فيكسل ويمشي في غير الطريق السوي . ولكن العاطفة الوالدية لم تكن في الواقع لتوافق على ايّة قساوة غير مألوفة يعامل بها الولد جرياً على ما جاء في قول الشاعر :

ادعو على ابني وقلبي يقول يا ربّ لا لا

الركوع والزرب

وعادة المعلمين لتلك الايام في انزال العقوبات دعوة الولد الى الركوع على ركبتيه ، او على ركبة واحدة على الحضيض . وفي حال كبر الجرم ، على شيء من الحصى ؛ وزربه وقت اللعب او حين يذهب رفاقه لتناول الغداء ، واشعار اهله بزربه ليحملوا اليه غداءه الى المدرسة ، والزامه بحفظ الدرس او كتابة

الفرض اللذين اهملها او لم يتقنها ، او اعطاؤه درساً جديدًا يحفظه او ينسخة في زربه .

المجلدة والطبشة والفلق

تؤلف المجلدة من حبل او جلد مجدول يُجلد بها الولد على كفيه او ظهره ، وينوب عنهـا غالباً القضيب من التوت والسنديان والورد ، او الطبشة يضرب بها الولد ضربات عددها عـلى قدر جرمه. وقد يصفع عـلى وجهه او قذاله ، وتُفرك اذناه او «تشمطان» اي يشدّ بهما.

اما الفَلَق فهو كناية عن عصا طويلة انيط حبل بطرفيها فيمسك بها ولدان بامر المعلم ويدخلان رجلي المذنب في داخل الحبل ، ويديران العصا فيلتفّ الحبل على الرجلين ويقيدهما . ثم يرفعها الولدان بطرفي العصا الى اعلى . ومن ثم يهوي المعلم ضرباً بالقضيب او الطبشة عليها ضربات معدودة .

وقد بطل الآن قصاص الضرب بانواعه في المدارس اللبنانية . واكتفي في العقوبات بحبس الولد والزامه بدرس بعض الامثولات او بكتابة عدد معين من السطور ، وباعطائه علامات تتناسب مع مسلكه ومقدارشغله وتعيين مقامه في الصف ، وهو الاجدى والاصلح.

صناعة الخزف في بيت شباب

درس اجتماعي للاب موريس دي فنويل اليسوعي

تعريب الاب تونل اليسوعي

بيت الخزّافون كلهم في بيت شباب[١] الى اسرة واحدة اخذت اسمها من صناعتها فدعيت بيت الفاخوري . ويتبين مما تناقلته الالسن ان اصل هذا البيت من صيدا ، ولم يزل منه في هذه المدينة حتى اليوم فئة من الخزافين تحمل اسم « فاخوري » وهم مسلمون ونصارى . ومنه ايضاً فرع في بتغرين من اعمال المتن افراده من الطائفة الارثوذكسية .

ويبدو ان هؤلاء حين رأوا ان الريح الشمالية في بتغرين تحول دون اذكاء النيران في ما كانوا يبنونه من الاتاتين ولا تساعدهم كما كانوا يشتهون ، عوّلوا على الانتقال منها . وكان اول الراحلين فئة قدمت منذ مئتي سنة تقريباً الى بيت شباب وحلّت في اعاليها في مكان دعي « الفاخورة » وهو ما زال حتى اليوم يحمل هذا الاسم ولكنهم لم يستقروا فيه طويلاً لان الريح الشمالية في الشتاء ألجأتهم الى اتخاذ مكان آخر في الوادي القريب اقل تعرضاً لتلك الريح وما زالوا هناك حتى اليوم . وكل آل الفاخوري في بيت شباب من الطائفة المارونية .

وهناك تقليد آخر يتناقله آل فاخوري مآله ان اصل اسرتهم من بعلبك من طائفة الروم الارثوذكس رحلوا عنها اولاً الى بتغرين ثم تفرعوا منها فرعين : الاول هبط بيروت حيث اعتنق الاسلامية ، ويقيم اكثر ابناء هذا الفرع في محلة

---

١) بيت شباب بلدة كل اهلها موارنة عدد المقيمين فيها نحو ٣٬٨٠٠ وقد هاجر منها نحو ٢٠٠٠ واكثر هؤلاء قصدوا الى افريقية الغربية التابعة لفرنسة واشغالهم هناك في ازدهار . وفي البلدة صناعات اخرى غير الخزف منها مصاهر الاجراس لبيت نفاع ، ومصانع الحديد لبيت الحداد ، ومعامل الحياكة لآل حايك .

الكورنيش بالقرب من الحامات العسكرية. والثاني رحل افراده الى صيدا وهناك اسلموا ايضاً. ورحل بعضهم الآخر الى بيت شباب كما قدمنا فاقاموا اولاً في اعلاها ثم هبطوا واديها . والله اعلم[1].

ولنعد الى آل فاخوري الذين في بيت شباب موضوع مقالتنا هذا. فان هؤلاء يتعاطون من نحو ثلاثين سنة صنعة الفخار، وقد اسسوا لها نحو عشرين مصنعاً في بلدتهم كانوا يطبخون في كل منها طبختين الى ثلاث في كل موسم . اما اليوم فليس في بيت شباب الا سبع اسر تتعاطى هذه المهنة في خمسة مصانع . ويلاحظ ان الذين تخلوا عن هذه المهنة ما زالوا يحنون اليها لانهم شربوا حبها مع الحليب . وقد اخبرنا احد هؤلاء قال : في ايام طفولتي كنت اذهب مع اخوتي فننقل الطين من حوض التصويل لنصنع منه دمى صغيرة كنا نشويها في اتون صغير خاص بنيناه بايدينا على مثال مصغر لاتاتين المصانع الكبيرة . وفي ايامنا هاجر الى افريقية ثلاثة ارباع هذه الاسرة .

التراب

التراب اهم ما يهتم به الخزاف لانه المادة الاساسية في الخزف. فآل فاخوري في بيت شباب يبتاعون ما يلزمهم منه من تراب البلدة نفسها . فترى الخزافين منهم غالباً ما يجولون في البلدة يتفحصون ترابها كانهم يبحثون عن الحلازين وما مطلبهم الا تربة الخزف فاذا ما وجدوها في ملك احدهم ابتاعوا منها بضعة امتار مربعة وباشروا الحفر فيها الى ان يجدوا العرق الصالح للاستثمار .

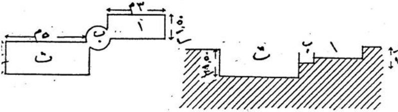
والتراب الصالح للخزف نوعان : احمر وهو «الدلغان» وابيض وهو «الحوّارى» وقد يمزج الاحمر بشيء من الابيض لصنع الجرار والنعارات الراشحة التي يبرد الماء فيها صيفاً . اذ قد تبين بالاختبار ان التراب الخزفي الابيض هو وحده الصالح لصنع الآنية الحافظة الماء بارداً في الصيف . ويجبل التراب احياناً بماء البحر لاغراض يقصدها الخزافون لذلك قالوا في امثالهم : «كل فخار ولو ترابو» .

---

١) ليس لهذا التقليد مستند ثابت يجمع آل فاخوري من مختلف الطوائف في اصل واحد . وانما هو، على ما لاحظنا ، من باب الحدس والتخمين .

التصويل

بعد استخراج التراب ينقل احمالًا الى احواض التصويل أو المصاول. وهذه تحفر في الارض ثلاثة ثلاثة احدها بجانب الآخر . ولكل اسرة مصاولها المثلثة وكلها في اسفل البلدة يتصل بعضها ببعض في الموضع الوحيد الموافق لها بسبب مجاورته لساقية ماء تسيل في تلك المحلة (الرسم ١)



الرسم ١ – قطع و مسطّح　الارقام تقريبية وتختلف باختلاف الاحواض

في المصول الاول (ا) :

يطرح التراب وتضاف اليه حاجته من الماء ثم يقبل على عركه بجرفة طوال يوم كامل ، وبعد ذلك ينقى من كل حصاة ويداف الى ان يمتزج بعضه ببعض على شكل يقرب من اللبن الخاثر واخيرًا ينقل الى

المصول الثاني (ب) :

وفي هذا المصول يعنى بتصفيته وتمحيصه من كل جسم غريب بحيث يصبح خاليًا من كل كدرة ثم يحول الى

المصول الثالث (ت) :

وفي هذا المصول يترك الى ان يرسب في القعر وعندئذ يرفع الماء عن وجهه بالطول والراسب يصبح صالحًا للعمل . على ان كميته ان لم تكن كافية اضافوا اليه جبلة ثانية فثالثة من التراب على النحو المشروع به آنفًا الى ان يصير ما في الحوض الثالث كافيًا للعمل طوال للسنة او الموسم فيؤخذ بنقله « تاميل تاميل » على قدر الحاجة في كل طبخة في « نقالات » من خشب تحملها الدواب . وكان

العمال انفسهم من قبل يحملون « التاميل » كلهـا الى المعمل ويضعونها في غرفة ذات درجة محدودة من البرودة والرطوبة .

العجن

يؤخذ القدر اللازم من « التاميل » ويداس اولًا بالارجل وهو ما يسميه الخزافون « الدوسة » فيقول المعلم لصانعه : « دوس دوسة » ومن ثم يعجن او « يعرك » بالايدي وهذا « العرك » ضروري لان اليد الطف حسًا من الرجل وهي تشعر بادق الحصى الباقية في « التاميل » بعد التصويل فتنتزعها على انها لو بقيت اضرّت كثيرًا بالفخار بل اتلفته لانها حيث تبقى تحدث ثقبًا . وقد يستعملون عند العرك قليلًا من الرمل الناعم منعًا لعلوق العجين بالاصابع بسبب لزوجته او بالبلاطة التي يعجن عليها .

انواع الخزف

يكاد خزافو بيت شباب لا يفوتهم صنع شيء من انواع الخزف فانهم ماعدا آنية الزهر والصحاف والكؤوس يصنعون الجرار والدنان (الدغاير) على اختلاف انواعها وحجومها .

واكبر هذه المصنوعات :

الخابية : جمعها خوابي علوها ٩٠ سنتيمترًا وسعتها نحو ٦٠ رطلًا تصلح لحفظ الحبوب والزيتون وغير ذلك (راجع الرسم ٣)

الرباعية : تسمى ايضًا « الثلاثية » تسع من ٢٥ الى ٣٠ رطلًا (ربع او ثلث قنطار) .

ثم الجرار المتفاوتة الحجم منها :

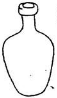
الدكوجه (جمعها دكاكيج) : تستعمل في البيوت لحفظ الزيت والخمر والعرق وغير ذلك من السوائل (الرسم ٢) .

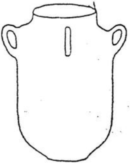
الخارج : يسع ١٠ ارطال
المزز : « ٦ «
الوسط : « ٤ «

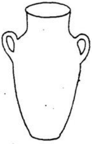
الصغير : رطل ونصف الرطل .

ويسمون هذه المجموعة المكونة من المزّز والوسط والصغير «العدّ» .


الرسم ٥


الرسم ٤


الرسم ٣


الرسم ٢

وهناك الآنية المجوّفة منها :

المعجن : وهو اناء واسع يعجن فيه الدقيق ويحفظ الخبز .

القَرَخ : يشابه المعجن في شكله ولكنه اصغر منه حجماً .

المعيجنة : هي من الشكل السابق ولكنها اكثر منه صغراً .

جرن البطاطا : وعاء عمودي الجوانب .

المخرّز : يستعمل لحفظ الخمر والعرق (رسم ٤) .

المحلوب : يستعمل لحفظ الحليب واللبن الخاثر (رسم ٥)

الصحفية : نوع من الصحون .

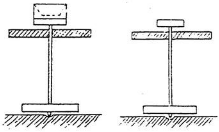
البرنيّة : نوع من الدكاكيج لاعنق لها ، ذات ثلاث او اربع آذان تناط بها في السقف أو الجدار واكثر ما يحفظ فيها السمن والقورما والعسل .

كيف يصنعون آنية الفخار

تصنع القطع الصغيرة بالدولاب وهو مؤلف من قضيب عمودي اثبت طرفه الاسفل في رحى يديرها الخزاف برجله . اما طرفه الاعلى فيحمل رحى اخرى

توضع عليها المواد المراد صنعها خزفاً (راجع الرسم ٦ في (الف) . اما في (با.) فقد وضع الخزاف على سطح الرحى قالباً من طين الخزف مغطى بخرق وشكله يماثل شكل كعب الجرة فيحفظ المادة من الانخلاع وقت صنعها)

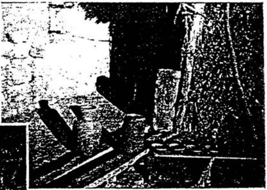
يضع الخزاف على الدولاب « المزاية » وهي قطعة من طين شكلها مخروطي في اعلاها الشيء المراد صنعه ، فاذا انتهى منه قطعه بخيط من اسفله عن باقي الطين وباشر صنع غيره . وهكذا دواليك الى ان يأتي على الطينة باسرها .



(ب) رسم ٦ (ا)

اما في صنع الجرار فيصنع « الكعب » اولًا وينشَّف بضع ساعات . ثم تمد لجوانبها قطع اسطوانية من الطين كل منها بطول متر تسمى « الدوَّار » . فاذا شاء المعلم العمل قال لصانعه : « ولّف الدوَّار » ومتى قُدّم له أسنَدَ احد طرفيه الى كتفه واحكم لصق الطرف الاخر بكعب الجرَّة بعد ترقيقه بادارته بيديه فينساب بين اصابعه كالافعوان ويأخذ الدولاب يدور وبطن الجرة يتكون مرتفعاً شيئاً فشيئاً الى ان يتكامل . وعندئذ يجف بعض الجفاف (الجرار العادية تكفيها الاسطوانة الواحدة . اما الجرار والآنية الكبيرة فقد تتطلب عدداً غير قليل من الاسطوانات) .

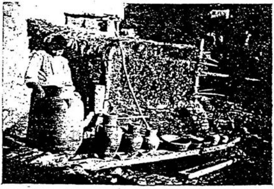
وبعد الجفاف يؤخذ « بتخبيطها » اي ترقيقها وتجليسها ، وذلك بان يأخذ غلام الفاخوري بيده قطعة خشب تسمى «الكف» وهي تشبه الحجارة الملساء المأخوذة عن شاطئ البحر او ضفاف النهر فيضمها بيسراه في داخل الجرَّة ويباشر



صورة ١ اطوار العمل في الخزف
- الكعوب
- الجوانب المهيأة للتخ
- الدكوجة وقد ك



صورة ٢ – العمل على الدولاب
يحرك الخزاف الرحى برجله حافية



صورة ٣ – بعض انواع الخزاف يستند الى الخابية . ايضاً العد اي مجموعة من والوسط والصغير

(تصوير عبد الله ابي هـ

بينما خبط بطنها من الخارج مرققاً جوانبهـا بواسطة «المخباط» ، عاملاً على نفخها وتسويتها ووضعهـا في الشكل الهندسي الموافق لها .

اما في تركيب العنق او«البوز» فيستعمل الخزاف من الطين قطعاً كالتي استعملها في تركيب الكعب. وذلك بان يضع الجرة على الدولاب ويصل ببطنها قطعة الطين المختصة بالبوز ويلفهـا محكماً وصلها وتجليسها بيدهِ الى ان ينتهها ويختمها بحرف منتفخ قليلاً عند فمها ، فيقال انه « عرّى البوز »

ويعمد اخيرًا الى « تركيب الاذنين » من قطع خاصة (قطع دَينين) يهيئها معاونه بصورة كتل كروية يمدهـا باصبعه ويلفها عليها ثم يلصق طرفهـا الواحد ببطن الجرَّة والطرف الآخر بعنقها. وعند العامة في لبنان مثل مأخوذ من صنع هذه الآذان وهو : « كيف ما راد الفاخوري بيدير دينة الجرة . »

وعلى هذا النحو تكمل الجرَّة الكثيرة الاستعمال في لبنان ، وذلك بعد ان يستغرق صنعها نحو اليومين بين عمل وراحة[1].

التنشيف

يجب ان يتم«التنشيف»وئيدًا في موضع معتدل البرودة. وكان اهل القرية اذا اشتدَّ الحرّ في الصيف جاؤوا الى مصانع الفخارين ينشدون عندهم الهواء البارد. ولولا برودة الهواء لتشقق الخزف لذلك تراهم يتفحصون المصنوعات غالباً ويقلبونهـا من جانب الى آخر حتى لا تتم نشوفة هذا قبل ذاك فيقع التشقيق ويتلف الخزف . وتبقى القطع معروضة للنشوفة عـلى هذا النحو شهرًا ثم تنقل الى الفرن وتشوى .

---

١) بعد صنع القطع الفخارية ، توضع على اعمدة متفاوتة العلو يسمى كل منها « الحرزة » ويعنى بان يكون سطح « الحرزة » جالساً جلوساً افقياً لا ميلان فيه حتى تكون اكعاب القطع مستوية استواء تاماً لا يشوّه اوضاعها انحناء. وللتأكد من افقية الاعمدة يصبّون عليها نقطاً من الماء فاذا لم تتحوّل الى احدى الجهات كان مستواها وفق المطلوب .

الشيّ

الفرن او «العدوشة» تبنى من الحجر. وفيها غرفتان الواحدة فوق الاخرى وبينهما رقبة معقودة من لِبْن مفتوحة لمرور اللهيب. والخزاف يضع اللبن ويدس منه قطعاً في الاتون كل مرة يتهيأ للشيّ. ويبقي قسماً آخر محفوظاً عنده لاستعماله بدلاً مما يتلف من لبنه في النار.

يضعون في الغرفة العليا القطع الضخمة المحتاجة الى كثير من الحرارة اما القطع الصغرى فتوضع في النصف الابعد من الغرفة السفلى. وقد يضعون بينها وبين النار حاجزاً من حجر ليخففوا عنها شدة الحرّ. وكثيراً ما يتحول هذا الحاجز الحجري الى كلس من كثرة الحرارة فينتفع بما يباع منه. اما الحجارة القريبة من محل الوقود فتنتقى من النوع الناري الذي لا تؤثر فيه الحرارة. وهذا المكان يدعونه «بيت النار».

ويبتدئون عادةً بنار خفيفة ثم يستمرونها شيئاً فشيئاً الى ان ترتفع حرارتها الى درجة جدّ عالية.

واذا أساؤوا استعمال النار فسد الشيّ وتعطل الخزف المشويّ فخرج اما نيئاً او كان سريع العطب كثير الشقوق.

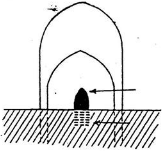
ولا بدّ من توجيه الاتون الى مهب الريح لتزكية ناره. على انه لا بدّ في ذلك من مجانبة التمادي والافراط وملازمة الاعتدال بحيث تضرم النيران على القدر اللازم فالزيادة تضر تماماً كالنقصان. وقد رأينا ان المحال المعرضة لريح الشمال لا تصلح لبناء الاتاتين، واكثر ما شاهدنا منها في بيت شباب جعل في دريةٍ من شدّة الريح ووجّه الى الجهتين الجنوبية والغربية فيأتيه الهواء اللازم له من هتين الجهتين.

والاتاتين المبنية هناك تستند كل ظهورها الى منحدرات ارضية. وقد جعلت بيوت نيرانها في حفر عميقة وفوقها غرف الشيّ على مستوى الارض تماماً. وتبلغ

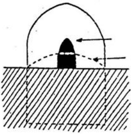
غرف الشيّ في الافران الكبرى نحوًا من ٧ امتار في ٥ وفي ٤ علوًا.

الرسم ٧

(١) قطع الجهة الامامية

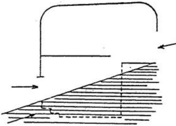


(٢) قطع الجهة الخلفية



وتكون مدة الشيّ الاولى اطول منها في غيرها لان فيها يتبخّر ما في جدران الاتون وما في المواد المشوية من رطوبة . ولذلك تسمّى «مدة التبخير» وهي تستغرق نحوًا من ١٥ يوما تستهلك من الحطب زهاء ٢٥ الى ٣٠ قنطارًا . اما مدة الشيّ الثاني فنحو سبعة ايام وتستهلك زهاء ٢٠ قنطارًا من الحطب . والمدة المقتضاة للشي الثالث اقل من سبعة ايام ويكفيها من الحطب زهاء ١٢ قنطارًا . اما ما يسعه الاتون من القطع الخزفية ، فيما اذا كان حجمه كبيرًا ، فلا يقل عن الف قطعة .

(٣) قطع الجانب





صورة ٤ : المصول



صورة ٥ : مدخل الاتون في الواجهة . لقد تمّ الشيّ فيرمي الصانع التراب على النار بالرفش ليطفي بقايا اللهيب



صورة ٦ مدخل الاتون عند الوراء . وقد عزّل من الحجر والطيّون . تظهر فيه الانية الخزفية مكتملة .

(تصوير عبدالله ابي هيلا)

كيف يشوى الخزف :

قبل ايقاد الاتون يغلق بابه الواقع الى الوراء بركام من الحجارة ويحكم سدّ ما بينها بالنبات المعروف «بالطيّون». وعندما يمتد اللهيب الى جوف الاتون كله يعلق بالطيون ويحرقه ولا يحصل ذلك الا في نحو اليوم الخامس فيقال : « دفقت النار » . وعندئذٍ يبادرون الى نزع الحجارة من الباب فيمرّ منه الهواء. واذا رأوا ان عملية الشيّ ناجحة رددوا كلمتهم الاصطلاحية « صافحت » اي ان الطبخة قد صحّت وسلمت واصبحت مضمونة. وبعد ذلك يرفعون من سائر الابواب ما كانت تسدّ به ، فتمر فيها الريح دون ما مانع ويحركون النيران « بالدكش » وهو عصا طويلة ذات اصابع وقد يستعملونها لرفع القطع الساخنة فلا تسدّ المخارج. ولا بدّ من انقضاء يومين يبرد فيهما الاتون فيتمكنون من افراغه .

ويتصلب الفخار بعد شيّه تصلباً قوياً فيصبح « مثل النحاس » واذا احتاج المعار عند تنظيم الاتون الى تثبيت حجرين وضع ما بينهما قطعة من الخزف تدعى « دحًّا ». اجل ان الخزف سريع العطب لا يحمل صدمة ولكنه يصبر على التكتل في اثناء النقل ولا يتكسر. ومن امثالهم في ذلك : « حمّل قنطار ولا تدق مسمار » :

ويكتسب الخزف بعد شيّه لوناً اسمر ضارباً الى الحمرة دون ما تلوين بالبرنيش .

البيع

يتوافد التجار في الصيف على الفواخرة لابتياع آنية الخزف وتكون صفقاتهم متناسبة مع محصول العام. والصفقات الحسنة تعقد مع اصحاب المحاصيل الحسنة .

يحكى ان التجار عندما كانوا يحملون ما يبتاعونه من الخزف على البغال والحمير كان الشتاء ينقضي او يكاد قبل ان تنفد محاصيل الفخار من مستودعاتها.

اما في ايامنا هذه فسيارات الشحن تذهب بها الى الاسواق قبل نهاية ايلول.

موسم هذه الصناعة ومبرراتها

ترتبط شروط صنع الفخار باحوال موسمه: يبدأون التصويل في الربيع ايام الصوم. وان تأخروا عن هذا الموعد نضب ماء الساقية المعول عليه في تصويل الاتربة بالاحواض. وان بكروا والماء شديد البرودة تعذر عليهم احتمال العمل في جبل التراب النهار بطوله وهم حفاة الارجل.. وينتهي التصويل في منتصف ايار وفي اواخر آب يكون الفخار جاهزاً للبيع. وزبدة القول ان هذا العمل لا يمكن انجازه الا في الصيف كي لا يتأذى العمال من شدة البرد. وهم يعالجون الفخار الرطب في الشتاء. فضلاً عن ان التنشيف لا يمكن اتمامه في غير الصيف وذلك بتعريضه للهواء الطلق تحت سقف خيمة من ورق الاشجار مما لا يتيسر حصوله في ايام الشتاء المطرة.

واعلم ان الفواخرة ما كانوا يبتدئون اعمالهم قبل منتصف تموز ريثما يكون الفخار قد نشف. اما في ايامنا فقد يحفظون تراب الخزف من العام السابق ليستطيعوا الابتداء بشيء قبل موسم الحرير.

وزد على ذلك ان موسم الحرير من تربية الدود وقطاف الفيالج ما كان ليتم قبل الربيع. وكان اذ ذاك في بيت شباب ثمانية او تسعة معامل للحرير وجميع آل الفاخوري كانوا يربون دود الحرير فتشغلهم تربيتها عن غيرها من الاعمال. ولمَّا وقع الحرير في ازمته المعروفة اهملوه وعمدوا الى العناية بالماشية اخصها البقر فكان لكل اسرة في القرية بقرة او بقرتان، كما انهم انصرفوا الى العمل في كرومهم.

هل من سبيل الى تحسين صناعة الفخار واساليبها

هذا سؤال يجيب عليه الفخارون قائلين ليس باستطاعتنا ان نأتي بغير ما تعلمناه من اجدادنا. بيد ان بعضهم غطوا بسقف الاتون في الشتاء بالتوتياء ليمنعوا عنه المطر، فاقتصدوا بذلك نحو خمسة قناطير من الوقود في الشيء الاول.

ولو عمد بعضهم الى استعمال المحرك الميكانيكي في تشغيل الدولاب لهوّنوا العمل كثيرًا على انفسهم ، كما انهم لو سخنوا الماء اللازم للجبل لتمكنوا من صنع الفخار طوال السنة وزادوا في كمية الانتاج. اجل ان ذلك يتطلب نفقات كبيرة ورؤوس اموال وافرة ولكن مهنة الفخار البيتية تتحول عندئذٍ الى صناعة فنية ذات طابع تجاري .

ومهما يكن من امر فان هذه الصناعة البيتية الخالصة تحتاج الى تضافر الايدي في انهاضها. فالعامل الواحد لا يستطيع القيام بالاعمال المطلوبة كلها في الزمان المحدود ، فهو يستعين بآل بيته جميعاً ، واذا احتاج الى معاون غريب استعان باحد افراد اسرة الفاخوري لان « سر المهنة عندهم بالدم . »

قد يصعب اتقان صنع الفخار قبل ان تمر خمس سنوات على المتعلم. ففي السنة الاولى يُفرض عليه اداء مبلغ من المال لمعلمه اجرة تعليمه . وفي السنة الثانية يشتغل معه دون ما اجرة البتة وفي السنة الثالثة يبتدئ بالربح لنفسه . واذا انتهت مدة تعليمه بعد ذلك افترق عن معلمه ليشتغل منفردًا عنه او شاركه بالعمل وقاسمه مناصفةً ارباحه . ويشكو بعض الشيوخ من ان الشباب لا يرغبون بعد في تعلم هذه المهنة .

ومن ثم فالتعاون يكاد يكون مفقودًا تماماً بين مصانع الفخار اذ ان كلًّا منها يعمل لذاته وله مصاوله ومعداته . وقد يجتمع الفخارون في مستهل الموسم لا للتعاون بالعمل بل لاقرار اسعار البيع والاتفاق على عدد الاتاتين التي يشوون فيها الفخار وما يكون لكل واحد منهم من المحصول (لئلا يطغى الفخار على السوق فتهبط اسعاره). واذا كان لديهم قطع باقية من العام السابق حسبوا حسابها عند عدّ القطع المنوي صنعها ووزعوا هذا العدد على المصانع وفقاً لاهمية كل منها. واليك المثال على ذلك: في هذه السنة يشتغل كل من الخزافين التالية اسماؤهم:

نعوم معه ابنه وشريك واحد وعاملان ، له الحق باربعة اتاتين .
نقولا ومعه عاملان ، له الحق بثلاثة اتاتين.
نخله معه شريك واحد وعامل واحد : اتون ونصف اتون .

نعمةالله ومعه عامل واحد : اتون ونصف اتون.

الحاج ومعه شريك واحد : اتونان.

وقد يلجئ شيء الخزف اصحاب المعامل الى تبادل المعونة ذلك اذ ليس في الوقت الحاضر للمعامل الخمسة ألا اربعة اتاتين، ولانه قد يحدث في آخر الموسم ان يحتاج الخزفيون الى طبخة واحدة لبقايا القطع التي لم تشوَ تفادياً من اشعال اتون كبير لا سبيل الى املائه بالمطبوخات . عندئذٍ يتفقون على شيِّها في اتون موافق يعملون كلهم فيه ويشتركون في تقديم ما يلزمه من الوقود والحاجات.

ولم تدوَّن لهذه الصنعة اغانٍ عامية . ولم نسمع لها امثالاً دارجة غير التي قدمنا ذكرها في سياق مقالنا هذا[1].

وقد جاء الكتاب المقدس مرارًا على ذكر هذه الصنعة، من ذلك : وصفه الخزاف جالساً على عمله يدير دولابه برجليه (ابن سيراخ ٣٨ : ٣٢) وهكذا تصوره لنا النقوش المصرية القديمة . اما عندنا فالعامل في الخزف يشتغل واقفاً على رجل واحدة وبالرجل الاخرى يحرك الدولاب وعمله يتطلب نعومة الاصابع وخفتها لان الاناء لا يحتمل الشيء ما لم يتقن عمل التصويل وعرك الطين او لم تكن درجة الرطوبة او اليبوسة كما يجب ان تكون.

وقد قال ابن سيراخ في هذا المعنى:

«آنية الخزف تختبر بالاتون والانسان يمتحن بحديثه» (٢٧ : ٦).

*

هذه هي كما رأيناها بعيننا احدى الصناعات القديمة التي توارثتها البشرية عن الاقدمين.

ويمكننا خلال الكلام عليها ان نفقه ما جاء فيها من الآيات في الكتاب المقدس سواء في سفر التكوين، في خبر خلق الانسان من طين الارض ام

١) افادنا الاستاذ لحد خاطر ان في لبنان حول هذا الموضوع امثالاً عامية دارجة غير المذكورة في المقال منها قولهم : فخار يكسّر فخار . مثل الفواخره لا دنيا ولا آخره. لولا الكاسوره ما كانت الفاخوره . وكان مرة احد الزجالين يساجل زجالاً من معاصر الفخار المعروفة بمعاصر الشوف فانشده البيت التالي :

ابن المعاصر قد ما يكبر   بيضلّ اصله يردّ فاخوري

في رسالة القديس بولس التي يتحدث فيها الى الرومانيين (٩ : ١٩ – ٢١) عن الخزّاف الذي له سلطان على الطين ليبين في ذلك قدرة الله المطلقة وهو في ذلك يتصدى لكلام ارميا النبيّ القائل:

« الكلمة التي كانت الى ارميا من لدن الرب قائلًا :

« قم وانزل الى بيت الخزاف فاذا هو يعمل على الدولاب وهناك اسمعك كلامي.

« فنزلت الى بيت الخزاف فاذ هو يعمل عملًا على الدولاب ففسد الاناء الذي كان الخزاف يصنعه من الطين في يده.

« فعاد وصنعه اناء آخر كما حسن في عيني الفخاري ان يصنعه فكانت كلمة الرب اليّ قائلًا:

« اما استطيع ان اصنع بكم كهذ الخزاف يا آل اسرائيل؟ (ارميا ١٨ : ١ – ٦) »[١].

حاشية للمعرب

جاء في كتاب « معالم القربة في احكام الحسبة » تأليف ابن الاخوة فصلان طريفان عن الموضوع الـذي نحن في صدده نرويهما لما فيهما من فكاهة وافادة (راجع وصف الكتاب في آخر هذا العدد) قال :

الباب الخامس والخمسون

في الحسبة على باعة قدور الخزف والكيزان

يؤخذ على باعة قدور الخزف والكيزان والاواني بانهم لا يطلون ما كان مثقوباً منها او مشقوقاً بالجبس المعجون بالشحم وبياض البيض والخزف الاحمر المسحوق ويبيعونه على انه سالم فاذا وجد عند احدٍ منهم خزفٌ على هذه الصفة فادبه ليكون رادعاً لغيره.

---

١) نشكر للسيدين البر وويلسون فاخوري كل التعليمات التي تفضلا بها علينا، وجميع الخزافين الذين اتونا بالجواب على اسئلتنا بكل طيبة خاطر.

الباب السادس والخمسون

في الحسبة على الفاخرانيين والفخارين

ينبغي ان يعرّف عليهم رجل ثقة بصير بعملهم وتدليسهم ويشترط عليهم الا يعملوا الزبادي الا من الحجر المطحون ولا يعملوا من الرمل الا ما كان خرجياً المتخذ لولائم الافراح وان تكون الزبدية معتدلة وان تكون بقالب العادة وان تكون كاملة الدهن وان يعمل في صباغ الزبادي القلي الازرق والتوبغان والمغنيز ولا يعرضوه بالنيلة والشركس وان يكون شياً تاماً لئلا يوضع فيها الطعام وتشال فتتفتت في يد الآخذ او المعطي واذا ظهر من الكوز شيء معيب افرده وباعوه لغير الطعام ولا يداووه ويدلسوا به على المشتري ويشترط عليهم ايضاً الا يقدوا عليه بقوسان وهو روث الادمي ولا بشيء من الازبال فانه نجس بل بالحلفاء والقيشة وهو قشر الارز وماء الزبدة . ويشترط على باعة الغضار الا يباع غضار الكوز الا مفرداً من غضار التنور ولا يخلط كوز بتنور الا ما كان متقارباً ويعينه المشتري وعلى الفخاري اذا جاءه الزبون ليشتري منه مائة جام الا يقتصر على انه يريه جاماً واحداً ويبيعه من هذه العين ثم يعطيه من غيرها وهذا تدليس لا بد ان يعين له المبيع بكماله ويعاقده عليه ويشترط على الحمالين معاونة الزبون من الغرباء وغيرهم وان يستوفوا لهم حقوقهم على ما تقدم ذكره من الاصباغ وقلع المعيب وعدة ما يشتريه .

(ص ٢٢٢—٢٢٤)

لمحة في حياة الانسان الاول

في العصر الحجري القديم

حفريات كسارعقيل[1] فوق انطلياس

بقلم الاب ج. فرانكلين يونغ اليسوعي
من جامعة فوردام (نيويورك)

في هذا العصر الجديد بلغت العلوم الطبيعية شأوًا بعيدًا من الرقي مثبتةً ان في طوقها حلّ العديد من المشاكل، الّا ما كان منها يوجه خاص منوطاً بالشؤون البشرية في العصور الاولى . وهناك مجموعة علوم تختص بهذا الموضوع الذي يظهر قليل الفائدة بعيد التطبيق عمليًا . وهذه المجموعة يمكن حصرها تحت عنوان واحد هو : « درس الآثار البشرية القديمة » او تحت عنوان آخر اقرب للفهم وهو : « علم الانسان الاول » . بذلك يمكننا العود الى ما كان عليه الانسان في العصر السابق للتاريخ المكتوب بزمن مديد من مثل كيف كان يعيش، وماذا كانت ادوات العمل التي اوجدها للاستعانة بها في معيشته، وانواع المآكل التي كان يتغذى بها ، واية بيئة اقليمية كانت تلائم نموّه، وما هي المدة المفترضة لمدد سني حياته .

كل هذه الشؤون تختصّ بدراسة الانسان الاول، وهي بعيدة عن شؤون العالم الحديث، وتطوّر السياسة فيه، ونفوذ شعوبه ورقيّ تاريخه . بيدَ ان عالمنا هذا الحالي قد أُسس على ذلك الماضي البعيد المكتنف بالغموض والنسيان، الشبيه بجزيرة في عرض البحر راسخة في عمق المياه على صخر من مرجان متوارٍ عن الانظار .

---

١) تبعد كسار عقيل عن ثغر بيروت عشرة كيلومترات على الطريق العامة، وثلاثة كيلومترات تقريباً خطاً مستقيماً عن شاطىء البحر القريب من انطلياس . اما المأوى الصخري فهو قسم من الصخور الطباشيرية العالية التابعة للمنطقة الجيولوجية المعروفة بالجوراسيك . وترتفع اعلى نقطة من مكان الحفريات ٧٥ متراً فوق سطح البحر (راجع الرسم ١)

ذلك العصر عصر البشرية الاول المترامي في بعده ، المتناهي في طول مداه ، لا يتناوله الطالب في عهد دراسته الا لماماً ، وبالماع خاطف ؛ كذلك الرجال المثقفون فانهم لا يفقهون تماماً ما هي الوسائل المنطقية المستعملة لتمكين العلماء من البلوغ الى نتائج ثابتة تتعلق بحياة الانسان الاول واذا ما قرأوا في المجلات والصحف بعض معلومات حول كيان الانسان في العصر الظرآني استحال عليهم الحكم في ما لهذه المعلومات من قيمة صحيحة ، وغرب عن اذهانهم الاساس الذي يرتكز عليه ما فيها من اخبار . وزبدة القول ان الثقة في مثل هذه المعلومات الصحفية كثيرًا ما تكون في غير محلها ، لان قوامها في الاغلب قليل من الحقائق الثابتة ، وكثير من الاعتبارات الوهمية .

في هـذا المقال ، ولئن كنت شاعرًا بعجزي عن تبيان المعلومات الكاملة الممكن القاؤها في سلسلة من الدراسات ، فقد قصدت الجواب عن بعض الاسئلة العامة المتعلقة بالطريقة المتبعة في درس العصر الحجري للانسان.

اني لعالم تمـاماً ان هذه الاسئلة هي في ذهن كثيرين من المثقفين ، لانهم كثيرًا ما طرحوها عليّ . وحسبي في الجواب ان اظهر الاسلوب الذي يستعمله الدارسون لولوج باب هذه الدراسة . وعلى ذلك ساتخذ حفرياتنا في كسارعقيل ، في وادي انطلياس ، مثالًا اول لذلك الاسلوب ، مقدماً بكثير من التفاصيل المعلومات الوافية عن الحفريات التي قمنا بها في هذا المكان ، وعن النتائج التي توصلنا الى التثبت منها . فهذا على ظني يناسب القراء اللبنانيين لما يكسبهم اياه من الاحاطة الوافية العميقة بعمل يقع في داخل حدود بلادهم ، وعائد على ما نعلمه الى كشف النقاب عن تاريخها القديم ، وكيف كانت الحياة البشرية فيها لعدة آلاف خلت من السنين . وهو في الوقت نفسه يؤدي الى رفعة قدر الوطن اللبناني وزيادة مجده .

السؤال الاول

اول سؤال يطرأ على فكر كل انسان يتصل باحد اولئك العلماء هو التالي :
« كيف استدللتم على وجوب الحفر في هذا المكان ؟ »

هذا سؤال جوهري يدل على ذكاء اذ يبدو جليًا اننا لم نأتِ للحفر في هذا المكان الا وقد توافرت لدينا الادلة على ان حفرياته ستكون ذات ثمرة ، كما هو البديهي ان المرء لا يقوم على الحفر في مكان دون ما ادلة حسّية تحمله على ذلك . ولمباشرة الحفريات في محلة كسارعقيل قصة طريفة خاصة نرويها فتكون بمثابة جواب عن السؤال المتقدم :

من نحو بضع سنين كان احد الناس يطوف الاراضي اللبنانية باحثًا عن الكنوز المخفية التي طالما رددت الالسن الاساطير عن وجودها بكثرة في مغاور الجبل اللبناني . وفي طوافه وصل الى وادي انطلياس فذكروا له ان هناك مغارة[1] يتناقل عنها الرواة ان جيشًا دخلها بكامل معداته فسدّت عليه ، وان مذخرات ذلك الجيش ما زالت مدفونة معه بانتظار من يأتي من النقابين فيظهرها للنور . ولهذه الاسطورة على ما اظن اساس تاريخي يلمع الى قتل فئة من المسيحيين في مغارة انطلياس[2] . فهذا المنقب عن الكنوز بحث عن المغارة واهتدى اليها ، ولكنه وجدها خاوية خالية من ايّ كنز . على انه لاحظ ان فوق مدخلها نوعًا من الحجارة المتراصّة على شكل مماثل لما وجده منها في مكان آخر من الوادي[3] ، فقاده ذلك الى الظن ان في هذا المكان الآخر مغارة ثانية

---

١) اكتشفت في هذه المغارة ادوات ظرّانية عديدة جديرة بالذكر (راجع بخصوصها كتاب الاب غودفروى زيوفن اليسوعي المنون : G. Zumoffem, *Note sur la découverte de l'homme Quaternaire de la Grotte d'Antélias au Liban*, Beyrouth, 1893 ; - *La Phénicie avant Les Phéniciens*, Beyrouth, 1900

٢) جاء في تاريخ الدويهي ، المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠ ، صفحة ١٥٢ بشان هذه المغارة ما يلي : « ان عشرة امراء من امراء لبنان هربوا سنة ١٣٠٧ (عند نكبة كسروان المشهورة) بحريمهم واولادهم من نائب دمشق اقوش الافرم واحتموا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نيبيه فوق انطلياس بالقرب من مغارة البلانه فدافعوا عن نفوسهم ولم يقدر الجيش ان ينال منهم ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا فامر نائب دمشق بان يبنوا على الغار سدًّا من الحجر والكلس وهالوا عليه تلًّا من التراب وجعلوا الامير قطلو بك حارسًا عليهم مدة اربعين يومًا حتى هلكوا جميعًا داخل الغار . »

٣) هذا الشكل المتراصّ من الحجارة اثرت فيه عوامل الفناء تحت سطح الارض فاكلت من الحجر الطباشيري ما هو اقل مناعةً . اما ترتيب الحجارة المنوه بها على الشكل الذي وجدت عليه فعائد الى تاريخ اكثر حداثةً .



الرسم ١ – منظر عام لمنطقة كسار عقيل مأخوذ من الشرق ويبدو في وسط الصورة المنزل الخشبي الذي بنته البعثة لسكنها ، وعلى يمينه الصخرة العالية التي كانت تكوّن المأوى الصخري والتي أجريت تحتها الحفريات .

من نوع المغارة الاولى . وقد حمله الظن على الشروع في الحفر في النقطة المذكورة ، وهي المدعوة بكسارعقيل فتوصل بحفره الى كشف جدار يدعى في اصطلاح الاثريين : « المأوى المظلل بالصخر » (Abri sous roche) ، وواصل الحفر متعمقاً الى ان مرّ به الاستاذ داي[1] ، مدرس علم طبقات الارض (الجيولوجيا) في الجامعة الاميركية ببيروت ، فشاهد الادوات الحجرية والعظام المتحجرة التي كانت تنقل مع التراب والحجارة من الحفائر ، وبالرغم من انه لم يكن اختصاصياً في علم تاريخ الانسان الاول فقد تنبه الى خطورة هذه المكشوفات ، وحاول ان يقنع الباحث عن الكنوز بان لا امل بالعثور على كنز ذهبي تحت مثل هذه المظاهر العريقة الراجعة الى عهد لم يكن للانسان فيه ان يعرف بعد شيئاً مما يختص بالمعادن . ولكن بحاثتنا هذا قرر مواصلة الحفر لان ملاحظة الاستاذ لم تقنعه وتثبط عزيمته ، بل زادته املاً بالعثور على ما يهوى . واستطرد الانكباب على العمل الى ان بلغ في حفره الى عمق ١٥ متراً . اما الاستاذ داي فحمل معه بعض مساطر من هذه الادوات الحجرية ، والعظام الحيوانية ، وبعث بها الى اوروبة لتفحص هناك بواسطة الخبراء الاختصاصيين . وعلى هذا النحو دخلت محلة كسار عقيل في عالم العلم .

اما المنقب عن الكنوز فلم يطل به الامر حتى اوقف العمل ، فاستعاد كسار عقيل هدوءه كما كان بالامس فما قبل منذ آلاف من السنين . وظلّ هذا الهدوء لا يقلقه مقلق الا من مدة غير بعيدة ، فلقد جاء في سنة ١٩٢٦ ، بعض العلماء الفرنسيين فقاموا ببعض حفريات سطحية[2] . وفي سنة ١٩٣٧ قدم الاب جوزف دوهرتي (Doherty) اليسوعي ، من جامعة بوسطن (بوسطن كولدج) في ولاية ماساشوزت في الولايات المتحدة الاميركية ، باحثاً عما كان مجدياً من الحفريات . فقيل له انه قد يجد في كسار عقيل ما يحقق رغبته . تلك كانت نصيحة العلامة

---

١) F. Day, *The rock Shelter of Ksâr 'Akil.* American University of Beirut, Special Report, 1924.

٢) Delcourt, *Observations sur l'Abri de Ksâr 'Akil (près Antélias, Liban)*, *Bulletin de la Société de Préhistoire Française*. Volume 24, 1927, pages 56-61 ; E. Passemard, *Mission en Syrie et au Liban*, ib., pages 70-72.



الرسم ٢ – منظر للحفريّات في عام ١٩٣٨، حينما اكتشف الهيكل البشري الذي سميناه «إكبرت» وتراه في محله على جانب الجدار الصخري في اسفل الرسم من جهة اليمين – واما الثقب الاسود الذي يبدو في اعلى الرسم فهو راجع الى حفر البحاثة عن الكنوز . وعلى الشمال في اعلى الصورة ايضاً صخرة بيضاء اللون وهي تدل على المنطقة الجيولوجية على عمق ١٠ امتار، ووجودها يُثبت لنا ان الهيكل المكتشف بقي محفوظاً في محله الذي دفن فيه

الفرنسي المشهور الاب هنري برويل في باريس ، المعروف في عالم المباحث العائدة الى ادوات العمل التي كانت للانسان في عصور ما قبل التاريخ . وكان الاب برويل هذا يعلم كل العلم ما للبنان مع شأن خطير في هذا الامر وان في كسار عقيل ادوات ظرانية . فحضر الاب دوهرتي ، ومعه الاب جورج ماهان (Mahan) اليسوعي ، والاب جوزف مورفي (Murphy) الملحقان كلاهما بالمعهد البابوي للتوراة في القدس ، وشرعوا جميعاً في الحفر . ولحق بهم في الدورة الثانية من الحفريات كاتب هذه السطور الاب يونغ (Ewing) .وفي هذه السنة الجارية ١٩٤٧ خفّ العمل ولم يبقَ من العلماء الا الاب دوهرتي والاب يونغ والاب مورفي اليسوعيون ، والاستاذ هربرت رَيت (Wright) من جامعة مينوسوتا (Minnesota) في مينيابوليس التابعة للولايات المتحدة الاميركية .

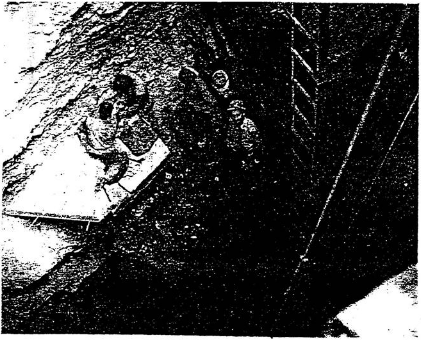
ان الطريق المؤدي الى الكشوف المثمرة ليس دائماً بالطريق الواسع السهل ، على ان هناك دلائل عامة تمكن من تخمين احتمالات توصل الى الاماكن المحتوية على العاديات، والطرائق العامة للبحث تهدي الى مثل هذه النتائج منها اعتبارات راجعة الى الحسّ العام كوجود الماء اللازم لحياة الناس الاولين ، ثم ان المغاور والمآوي المظللة بالصخور تستحقّ دائماً ان تكون موضوعاً للبحث . اما فيما يخص الرجل الاول الذي عاش في وسط العهد البلايستوساني (Pléistocène)[1] فالمغاور لا خطورة كبيرة لها لان اكثر محتوياتها ظهر مثلها في الاماكن المفتوحة ، او الاماكن التي كانت مفتوحة في ذلك العهد قبل ان تطمرها الاتربة والحجارة . ولمثل هذه الكشوف حفر وآبار مثل التي عرفت على ضفاف نهر التيمس قرب لندن[2] او يبحث عنها على ضفاف الانهر التي تنحدر تدريجياً

١) عهد البلايستوساني هو المعتبر اقدم عهد بشري ، ويدعى ايضاً العهد الثلجي ، وهو آخر الاطوار الجيولوجية قبل عهد الحولوساني المعاصر للانسان . ويقسم العهد البلايستوساني هذا في اوربة الى اربعة اطوار مناسبة لاطوار التثليج وفي غير اوربة ، حيث لم تستعمل طريقة الحساب التاريخي الاوربية كما في بلاد الصين، يقسم هذا العهد اصطلاحاً الى حديث ومتوسط وقديم .

٢) وقد وجد هناك قطعة من الجمجمة المشهورة المسماة باسم مكتشفها «سونس كوم مان» «Swanscombe Man» راجع Report on the Swanscombe Skull, *Journal of the Royal Anthropological Institute*, London, Volume 68 ، 1938, p. 18-98.



الرسم ٣ – صورة مكبرة للقسم الايمن من اسفل الرسم السابق، وهو يظهر الهيكل البشري في محله كما عثر عليه تحت الجدار الصخري.



الرسم ٤ – لوحة «الشيمنتو» التي صُبّت على الهيكل البشري لحفظه في اثناء الحرب، وترى العمال يعملون تحت ادارة الاب «.. رنى» لقطع القطعة بكاملها من الصخرة المجاورة.

وتسحل الاتربة من الشاطئين[١] كذلك المناطق الصحراوية فان رياحها تثير الرمال والحصى فتكشف المخابئ .

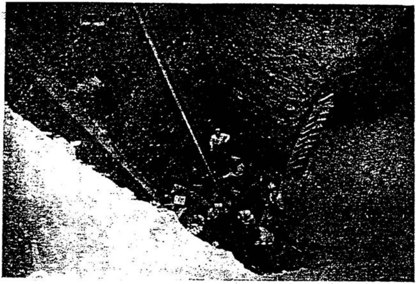
لكن من البديهي ان البحث يجب قصره على المناطق التي كانت موافقة لاعاشة الرجل في العصور القديمة[٢] . وهناك مصادر بحث غريبة تفيد احياناً كثيرة العلماء البحاثين على مثال ما وقع للعلامة الاستاذ فون كونيكسفالد (Von Kœnigswald) الالماني الذي وجد في بعض الصيدليات الصينية عظاماً واسناناً جيولوجية عريقة في القدم جيء بها الى الصيدلية لتسحق ويستعمل مسحوقها في تركيب بعض العقاقير الطبية . ولدى فحص هذه العظام والاسنان توصل الاستاذ كونيكسفالد الى كشف الاسنان المشهورة الان بنسبتها الى الرجل الاول المعروف في عالم العلم باسم Gigantipithecus[٣] . فالكشوف التي يعثر عليها في مثل هذه الطرق تكون ذات خطورة مختلفة ، وترانا هنا في حاجة الى شرح الواقع الاساسي الذي حملنا على اعتماد الحفر في محلة كنار عقيل . هذا الواقع نسميه دافع القرينة ، فبعرضه وبتمحيص الطريقة الاثرية التي استعملناها في كنار عقيل،تتبين الاصول العلمية التي حفزتنا واسس النقد الفني التي قادت خطواتنا الى هذا الاكتشاف .

---

١) الاكتشافات القيمة للهياكل البشرية التي عثر عليها على ضفاف الانهر تشمل الهيكل البشري المعروف باسم بيتكانتروبوس (Pithecanthropus) للعالم ديبوا (Dubois) ؛ وفي عهد احدث قطعة المكانتروبوس(Meganthropus)الموصوفة في كتاب : F. Weidenreich's : *Giant Early Man from lava aud South China Anthropological Papers of the American Museum of Natural History*, New York, Volume 40, Part I, 1945.

٢) العاديات الجميلة العائدة الى العصر الظراني الحديث النيوليتيك (Néolithique) كشفت في الفيوم بمصر في منطقة هي الان صحراوية G. Caton-Thompson and E. W. Gardner, *The Desert Fayum*, London, 1934 ; S. A. Huzayin, *The place of Egypt in Prehistory*, Cairo, 1941

٣) راجع وصفه في كتاب : F. Weidenreich, *Giant Early Man From Java and South China, Anthropological Papers of the American Museum of Natural History*, New-York, Volume 40, Part I, 1945.



الرسم ٥ – حالة الحفريات في تموز ١٩٤٧ ، وقد بلغت الى الصخرة الاساسية على عمق ٢٣ متراً.



الرسم ٦ – صورة الاب يوونغ من جامعة بوستون ، والى جانبه رئيس عماله اللبناني .

معنى القرينة المحلية

من زمن طويل جداً اوى الرجل الاول الى هـذا المأوى المظلل بالصخر المعروف الآن بكسار عقيل . وهناك تحت هذه المظلة الصخرية سكن واشعل ناره لشيّ لحوم الحيوانات التي كان يقتنصها ويأتي بها الى مأواه هذا . وبعد اكل هذه اللحوم كان يكسر العظام المستطيلة ويستخرج ما فيها من نخاعات جامدة وسائلة ، وكان يأتي ايضاً بحجر من الصوان قطعه من احد الصخور القريبة واقبل على نحته ببراعة ليجعل منه اسلحة وادوات ظرانية كالرؤوس للحراب والسهام ، وكالمقاشط لنحت قوائم الحراب الخشبية وصقلها ، كذلك لكشط اللحوم اللاحقة بالجلود ، والسكاكين لقطع مختلف الحاجات المعاشية ، والازاميل لكسر العظام ولنقش الرسوم في القطع العظمية والحجرية .

ان الرجل الاول كان يصنع هذه الادوات وغيرهـا من الصوان بفضل خصائص هذا الحجر المعروفة ، فانه بسبب صلابته يحفظ حدّه طويلاً دون ما انثلام ، وهو في الوقت نفسه قابل للتكييف طبقاً للمطلوب .

فهذه الادوات ، مع الشظايا المتناثرة من الحجر الصواني عند صنعها ، كانت تقع في الارض فتأتي الوحول والاقذار المنقولة بالارجل ، والغبار الذي يثيره الهواء ، فتغطيها . كذلك كانت قطع من الصخور المظللة للمأوى تتساقط وتنضم الى تلك الشظايا فتؤلف كلها طبقة على شكل بساط ممتد على الحضيض الحجري.[1] وبعد مرور زمن كانت الطريقة التي تصنع بموجبها الادوات الظرانية اخذت تتطور ومع تقلب الهواء الذي كان يهب شديداً في بعض الاحيان كانت الحجارة تتساقط من سقف المأوى تارةً كثيرة وطوراً قليلة ؛ كذلك كانت اجناس الحيوانات القاطنة هناك تتبدل على توالي الاجيال . فكل تلك التطوّرات تظهر آثارها في هذه الانقاض المفروشة طبقة فوق طبقة في تلك المحلة

١) راجع ما كتب عن خاصة الصوان والطرق المستعملة لصنع الادوات منه في الجزء الاول من كتاب M. C. Burkitt's. *The old stone Age* Cambridge, 1933

مُشابهة في شكلها ركاماً من السجاجيد كما تبدو في مخزن من مخازن تجار اليوم، منها الصفيق والرفيع الناعم والخشن، وقد رصت بعضها فوق بعض. ومن البديهي ان السجادة السفلى فرشت اولاً والعليا هي المفروشة اخيراً. ذلك ما يريده العلماء تماماً حين يذكرون ناموس تراصف العاديات. هو اعتبار بسيط، ولكنه اساس وصفي لكل طريقة تتبع في الاعمال الحفرية. فمن الواضح اذن اننا متى قمنا بالحفر بطريقة علمية في مكان، وغايتنا التوصل الى رسم صورة جديدة لتاريخ الرجل الاول، يترتب علينا الا نحفر دون ما تميز فنخلط بين العاديات التي نعثر عليها على اختلاف طبقاتها. فغايتنا من هذا البحث ان نتأكد بالتدقيق اي شكل من الادوات الظرانية المكشوفة سبق الشكل الآخر. واي نوع من الحيوانات ظهر في زمن معين، واي نوع تبعه. فلذلك كل اهمية هذه العاديات من حجارة او عظام سواء كانت تابعة لحيوان او لآدمي هي محصورة في عين العالم الاثري بمعرفة الطبقة الارضية التي وُجدت فيها، والمكان الذي استُخرجت منه، وما اذا كان لها شأن ملحوظ من جهتي الفن والطرافة، «القرينة المحلية» او «القرينة المصدر»

الحفر العملي

قبل مباشرة الحفر يدرس العالم بقعة الارض التي يريد العمل فيها بكل ما أوتي من خبرة وعلم سابق، ثم متى اتمّ تحديد النقطة التي ينوي العمل فيها باشر قسمتها الى مربعات مرقومة باعداد، لكل مربع عدده، حتى يمكنه العود اليه في قابل الحين، فينسب كل اثر الى مصدره «الدقيق». ففي كسار عقيل قسمنا البقعة الى مربَّعات عرض كل منها متران، باعتبار ان هذا الحجم موافق لغرضنا. وقد تكون هذه المربعات اكبر مما فعلنا كما جرى الامر في جبيل حيث كانت البقعة اوفر اتساعاً، فكانت المربعات يؤلف كل منها من عشرة امتار ولدى العثور على شيء ذي خطورة عظمى كان موقعه يحدّد باوفر دقة. ومن البديهي ان تجاور المواد الاثرية يجب ان يدوّن لان ذلك كثيراً ما يساعد على كشف بعض الغوامض، مثال ذلك العقد الذي وجد مؤخراً في كسار عقيل فان سلكه

كان قد فني ، ولكن الحبات بقيت منظومة بعضها الى جانب بعض ، فلو لم يشر عند اخذها الى الترتيب الذي وجدت عليه ، ويؤخذ رسمها شمسياً لاستحال اعادتها الى الشكل الذي ظهرت عليه في موقعها.

كذلك اذا وجدنا حجرًا مستديرًا ملونًا بلون المغرة الحمراء ، فمن المحتمل ان يكون قد استعمل لسحق هذه المادة فبقي لونها عليه . واذا كان هذا الحجر المستدير موضوعاً فوق حجر آخر او الى جانب حجر مربع اجوف فيكون ذلك الاحتمال حقيقةً لا شك فيهـا . فمثل هذه الاوصاف الدقيقة المتواصلة يستنتج منها العالم البحاثة كثيرًا من المعلومات . والصبر هو الصفة الاولى الواجب عليه الاتصاف بها في هذا العلم كما في غيره من العلوم ، وهي كثيرة.

بعد البحث عن القرائن السطحية ينتقل العالم الى القرائن العمودية. ويتحتم عليه ان يقدّر في الحفر الى ايّ عمق تعود مختلف طبقات العاديات. ولربما وصل الى مرغوبه باكثر سهولة فيما اذا باشر الحفريات من جانب بدلًا من ان ينزل فيها عموديًا،ولذلك فانه يباشر الحفر الى جانب البقعة كيما يسهل عليه فحص طبقاتها، ويتمكن من النظر اليها كما ينظر من جانب الى ركام السجاجيد المرصوفة . ولم يكن من حاجة في كسارعقيل الى مثل هذه الطريقة بسبب وجود البئر الفرعية التي حفرها الباحث عن الكنوز في هذا الموضع . والذي ظهر ان هذه الطبقات المتراصّة لم تكن في ترتيب منظم كركام السجاجيد ، لان في ارضها صعودًا وهبوطاً مناسبين لتموجات الارض عنـد سطحها او لاختلاف اذواق الرجل الاول في اختيار منزله.

زد على ذلك ان في كسارعقيل طبقات ارضية كثيرًا ما كانت مطمورة بالرماد الناتج عن نيران كانت تشعل في تلك المحلة، وتترك الى ان تنطفئ رويدًا من ذات نفسها . كل ذلك لا يفوت الحفّارين لانهم يكونون عادة من ذوي المران ، ويتمّون اعمالهم تحت اشراف عالم اثري فتراهم يميّزون من عند انفسهم بين طبقات العاديات الارضية المختلفة، كما في اعلاه ، ويتبعون بكل امانة وتدقيق تصاميم المربعات .

والجدير هنا بالذكر اننا توفقنا كثيرًا في اختيار العمال الذين يقومون بالحفر

في كسارعقيل فانهم من اللبنانيين المهرة الاذكيا . وكثيراً ما اثنيت عليهم في احاديثي وكتاباتي مبدياً الارتياح الى دقتهم ونشاطهم وبراعتهم .

فالحفارون يضعون الادوات الظرانية والعظام التي ينقلونها في اكياس من الورق . وترقم على كل كيس علامة المربع والطبقة الترابية وتاريخ اليوم ، وغير ذلك من المعلومات الاخرى المفيدة بهذا الصدد .

وكل ما يحفر من الارض يجمع ويعبأ في قفف ويرفع الى سطح الارض حيث يجري فحصه غربلةً . والغربلة تكون بفرز التراب والاقذار وتنقية القطع الصوانية والعظمية مهما دق حجمها ، ووضعها في اكياس مرقومة تماثل بارقامها اكياس الحفارين . ويكتسب المغربلون بالمزاولة مهارة جلّى في ملاحظة ما يعثرون عليه بين التراب من قطع الاسنان والصوان المتناهية في دقتها .

وفي اغلب الاحيان يرى ضرورياً تنظيف هذه القطع من الاتربة اللاصقة بها قبل ان تعرض للدرس . ويكفي لذلك عادة حامض الهيدروكلوريك (acide chlorhydrique) ممزوجاً بالماء ، والا فيلجأ الى الكشط ، واحياناً يكون الكشط ضرورياً ويجري بكشط غليظ على مثال السكين .

ويجري الفرز الاولي في القطع الظرانية والعظام . اما الكسر الصغيرة والقطع المكثفة بالابهام فتحصى بالعدد وتطرح خارجاً . ويمكننا عدد مجموع القطع المحفوظة والمطروحة في كل مربع من تخمين كثافة السكان الاقدمين في كسارعقيل ، في كل زمن من الازمنة الغابرة . وهذه على ما اعلم الحفريات الاولى التي تستعمل فيها مثل هذه الطريقة .

اما الدرس الاخير للقطع المفروزة فينبغي ان يجري في متحف كبير او في احدى الجامعات حيث المجموعات الواسعة من العظام والمواد الظرانية المجموعة من مناطق اخرى مختلفة ، فيقابل ضرورة فيما بينها وتستخرج من هذه المقابلة النتائج العلمية ، اذ لا يمكن ان يجمع في كتاب كل التفاصيل الكل من النواحي والاجناس والادوات والبقايا الحيوانية التي يُعثر عليها .

اما كسارعقيل فعلاوة على ما فيه من ملايين القطع تراه مسرحاً لمشاكل اخرى خاصة ، احداها الهيكلان البشريان المكتشفان على عمق ١١ و١٢ متراً .

فاننا عند بلوغنا الى هذا العمق في مربّع قريب من جدار المأوى المظلّل بالصخر شاهدنا عددًا من الحجارة المستغربة الوضع. فهي حجارة منعمة بتأثير مرور المياه عليها، مما يدلّ على انها مأخوذة بايدٍ بشرية من مجرى النهر القريب، فاخذنا لها صورًا شمسية ودونّا بشأنها ملحوظة خاصة أشرنا فيها الى جمعها مباشرة من جدار المأوى. ولقد كانت هذه الحجارة ملتحمة بعضها ببعض كما لو كانت طيّنت بالسيمنتو. وقد تم ذلك الالتحام بما تسرب اليها على طوال الاجيال من المياه المعدنية الحاملة بالخصوص مركبات الكلسيوم (كربونات الكلسيوم) التي اكتسبتها بمرورها على صخور المأوى الكلسية. فشرعنا برفع هذا الركام من الحجارة واحدًا بعد آخر حتى انتهينا الى هيكلين بشريين احدهما اوضح شكلًا[1]. وقد سلم راسه لانه على ما يظهر كان محفوظًا تحت بلاطة يسندها من الجانبين حجران. ولكن هذه البلاطة سقطت لسببٍ لا نعرفه فشوهت جانبًا من جمجمته تشويهًا بسيطًا لحسن الحظ.

ولما رفعت كل هذه الحجارة من المدفن تبين لنا ان القسم الاكبر من هذين الهيكلين قد تحجر. والتصق كلاهما بالارض التي دفنا فيها بعامل المياه الكلسية المشروح عنها آنفًا.

وهذا المزيج المتحجر من التراب والحجارة والعظام الذى يظهر عادة في الحفريات يسمّى باصطلاح الاثريين برِتشيا (Breccia). وهذا حيثما وجد في هذا المحل او في اسفل المأوى او غيره من المواقع يكون مشكلة خاصة لارباب الحفريات.

ولمّا كان هذا الهيكل العظمي لاصقًا بما حوله من الصخور فلم يكن من المتيسّر رفعه بسهولة من موضعه. وعلى ذلك كان لا بد من ان يقطع الصخر حول المدفن كله ليسهل رفع هذا المدفن قطعة واحدة. ويرجأ عمل فصل الهيكل الدقيق ريثما ينقل الحجر برمته الى المخبر.[1] اما في غير ذلك من المدافن فلا

١) اطلقنا على هذا الهيكل البشري الاكثر وضوحًا اسم «اكبرت» (Egbert)، فاصبح معروفًا به بين العلماء. وقد فضلناه بسبب ايجازه على غيره من الاسماء اللاتينية التي اعتاد العلماء اطلاقها على ما يكتشفون من الهياكل البشرية وكل منها متناه في الطول والتعقد.

صعوبة في رفع العظام من الارض التي وُجدت فيها .

وعلى ذلك فـلا بد من تحقيق عدة شروط لحفظ الهيكل من كل ما يضره . من ذلك صيانته ، حال كشفه ، من تأثير الهواء ، ونتائج تقلّب الطقس بين النشوفة والرطوبة ، فان تعريضه للهواء يعمل على افساده ويسبب له التحلّل والتفتت .

اما البقايا البشرية العائدة الى العصور القديمة الاولية مثل العصر البلايستوساني الاوسط فقلما يعثر على هيكل كامل منها ، فنكتفي عادة بعظم واحد او بكسرة منه لدراسة مثل هذه البقايا . وهذه الدراسة تستوجب علماً واسعاً وخبرة طويلة في علم التشريح .

بقي علينا ان نثبت بالتدقيق ما هي العصور العائدة اليها كشوفنا في كسار عقيل ، على ان بحثنا هذا ليس نهائياً بل من الممكن تعديله فيما بعد[١] ، لاننا لا ننجز الحفريات تماماً ولا نقوم على الخصوص بدرس النموذجات التي استخرجناها دراسة مستوعبة لان مثل هذه الدراسة تتطلب سنين عديدة .

كسار عقيل في ما قبل التاريخ

لا يخفى ان العلم المختص بالادوات الظرانية وغيرها مما صنعه الانسان قبل فجر التاريخ المخطوط ، يسمى « علم ما قبل التاريخ » وهذا العلم يقسم الزمن الى عصور عديدة طويلة المدى اخصها العصر الذي عاش فيه الانسان على الارض قبل استنباط الكتابة . فالعصر الاول والاطول من هذه العصور ، هو المعروف بالعصر الظراني القديم او الباليولتيك ، ويليه العصر الظراني المتوسط او المتزولتيك ثم العصر الظراني الحديث او النيولتيك .

وبعد هذه العصور الحجرية تأتي عصور اكتشاف المعادن ولكن ليس من شأننا هنا الاهتمام بهذه العصور الاحدث عهداً .

---

١) قد اشار كاتب هذه السطور الى كل ذلك في مقال آخر نشره في مجلة انكليزية عنوانه: *Preliminary, Note on the Excavations at the Palaeolithic Site of Ksar 'Akil, (Republic of Lebanon)*, *Antiquity*, London, December 1946 .
ولكنه زاد هنا النتائج الجديدة التي اسفرت عنها الحفريات الجديدة في السنة ١٩٤٧

اما العصر الظراني القديم او الپاليوليتيك[١] فيقسم بدوره الى ثلاثة اطوار: حديث ومتوسط وقديم. فاذا عدنا الى الادوات الظرانية الظاهرة في كسار عقيل وجدنا انها عائدة الى كلا القسمين: القسم الابعد من الطور المتوسط، والاحداث من الطور القديم الپاليوليتيكي.

وقد غلب على مثل هذه الادوات في الاصطلاح الاثري اسم المكان او الامكنة الاولى التي وجدت فيها بكثرة مثل: لڤالوا، وموستيه، واورينياك، (Levallois, Moustier, Aurignac).

ومن خصائص الصناعة البشرية في هذه الاطوار انها كانت سطحيّة، اي ان اكثر الادوات المعاشية كانت تصنع من قطع مصفحة من الحجارة الصوانية. وطريقة صنعها انها كانت تقطع من الصخرة العريضة الاصلية وفق المطلوب ثم تنحت مصقولة. اما من قبل ذلك فكانت هذه الادوات تنحت على القطعة الاصلية نفسها، فتأتي بشكل في غاية الثقل والضخامة. وقد سميت بالفرنسية (coup de poing) اي ضربة اللكمة او الضربة بجمع الكف، اشارة الى شكلها الضخم المستدير كاللكمة.

الطور الظراني المعروف باسم موستيه Moustier[٢]

كان الاقوام الذين اشتغلوا بالظران في هذا الطور يفصلون القطع المصفحة من اصل صخرة صوانية وينحتونها بمهارة من جهتها العليا. والادوات المنحوتة على هذا النحو سهلة التمييز عن غيرها، نخص منها بالذكر الكواشط المرققة بطولها من طرف واحد كحد السكين، ثم المخارز والاسطوانات الصغيرة

---

١) ربما كان احسن توطئة لدرس العصر الحجري القديم او الپاليوليتيك كتاب بيركيتس M. C. Burkitt's, *The Old Stone Age*, Cambridge, 1933 وان كان يحتاج الى قليل من التعديل طبقاً للاكتشافات الحديثة. ونخص بالذكر من المؤلفات المشتملة على هذا العلم كتاب:

A. Vayson de Pradenne, *La Préhistoire*, Paris, 1940.

٢) موستيه (Moustier) اسم بلدة من اعمال فرنسة قريبة من (Les Eyzies)

الغليظة الشكل وكان هؤلاء الاقوام من الجنس البشرى المنتمي الى الرجل المعروف بالنياندرتالي (Homme Néandertal) [١].

اما الاقوام الذين اتبعوا في اعمالهم الظرانية طريقة Levallois [٢] فقد كانوا ينحتون القطعة المراد صنعها في الصخر نفسه ، حتى اذا كملت واصبحت صالحة للعمل فصلوها عنه بضربة فنية واحدة. والجدير بالذكر انهم كانوا يجيدون نحت اعقاب هذه الادوات قبل ان يضربوها الضربة الفاصلة الاخيرة ، لانها بعد فصلها تصبح غير محتاجة لاي صقل او نحت.

وان اقدم ما عثرنا عليه في كسار عقيل من الصناعات البشرية يعود الى خليط من هتين الطريقتين السابق وصفها ، لذلك سميت هذه الصناعة هنا ، كما سميت في جبل الكرمل [٣] بهذا الاسم المركب Levalloiso - Mousterien وادوات هذه المجموعة كبيرة الشكل مكونة بالعموم من قطع مصفحة غليظة. ويلاحظ هنا ان ادوات هذه الصناعة كانت في عهدها الاقدام اصغر حجماً مما آلت اليه بعد حين في طور احدث.

وطالت المدة التي بقيت فيها هذه الصناعة اجيالاً . ومما هو جدير بالذكر العثور على طور انتقال من هذه الطريقة الى طريقة اخرى تعرف بالطور الاورينياكي « Aurignac ».

---

١) وقد وصفه الاستاذ بول في كتابه المعتبر مستنداً حقيقاً بالثقة لدى العلماء : Boule, *l'Homme Fossile* وهو المنشور لاول مرة في سنة ١٩٢٣ ، وقد اعيد طبعه مرة اخرى احدث عهداً.

٢) اسم منطقة في احدى ضواحي باريس وجدت فيها هذه الصناعة لاول مرة فاطلق اسمها عليها.

٣) D. A. E. Garrod and D. M. A. Bate, *The Stone Age of Mount Carmel*, Volume 1, Oxford, 1937.

طريقة اورينياك (١)

انّنا نطلق هذا الاسم بالعموم على الطور التابع للطور الذي سبق لنا وصفه في اكتشافاتنا بكسار عقيل، وهو قسمان ويتميز بالخصوص بصناعة الشفار الحجرية لكثرة ما يعثر في الحفريات العائد عهدها اليه على ادوات شبيهة بشفار السكاكين . كذلك يتميز عقده المتوسط على وجه خاص بما تخلّف منه من اصناف الكواشط المتقنة الصناعة ، ومن الازاميل المستعملة للنحت . فلهذه الازاميل رؤوس تشبه مفكات البراغي . وكان الاهلون في ذاك الوقت يستعملونها ، ولا شك ، في فلق العظام الحيوانية لاستخراج ما فيها من النخاعات . وكانوا ايضاً يفصلون بها قطعاً دقيقة من العظام الكبيرة ليحولوها الى ادوات منزلية تستعمل في مختلف الاغراض المعاشية كالمخارز والابر وما شاكل . وكانوا ايضاً ينقشون بها على جدران المغاور الرسوم والتصاوير .

ونرى الان ان في استطاعتنا تسمية نوع الصناعات المكتشفة في كسار عقيل باسمها الصحيح الذي يجوز بعدئذٍ نسبته الى الصناعات المماثلة التي تظهر في حفريات اخرى ، ولا يعني ذلك اننا لا نعثر على بعض الاستثناءات الجلية حين نقابل ما بين نموذجات هذه الصناعات . فهذه الفروق ستبدو باكثر جلاء عند انتهاء دراستنا في نشرتنا الاخيرة عنها، وبكنا منذ الان لفت الانظار الى بعض نقاطها المفيدة .

فالادوات الراجعة الى شكل واحد والتي تؤلف طريقة خاصة من الصناعة القديمة ، تُجمع على الطريقة نفسها التي يجري عليها علماء الحيوان في تقسيم عائلاته واجناسه وانواعه ، وذلك بالاستناد الى المشابهات الظاهرة ما بينها . ولذلك حين نتمكن في عملنا من تمييز شكل من الادوات يصبح من السهل علينا فرز ما يشبهه من الارض ونسبته اليه ، بان نعلم ان هذا او ذاك الشكل من الصناعة موجود في بقعة كذا من الارض . ومثل هذه الادوات تستعمل في المتاحف كنموذجات لكل شكل من الاشكال . وعلى هذا تقتصر فائدتنا من كشف مثل هذا الشكل في احد الحقول . كذلك يمكن القول ان كشف شكل معيّن من الادوات الظرانية في طبقة من طبقات الحفريات لا

١) اورينياك Aurignac اسم بلدة قرب سان غودنس (S^t Gaudens) في جبال البيرنه بفرنسة .

يعتبر كافياً للاستدلال على الزمن[١] الذي يعود اليه ذلك الشكل . اذ قد يصح ان تبقى احدى طرق الصناعة للادوات في مكان ما دهرًا طويلًا في حين تكون هي نفسها قد تقدمت وتبدلت بغيرها من الطرق في مكان آخر . مثال ذلك في ايامنا احتمال وجود البنادق القديمة ذات الزناد الصواني (ابو فتيل) في وسط افريقية حتى الان ، في حين ليس من يجهل ان هذه البنادق قد تبدلت منذ زمن طويل في اوربة والشرق الادنى .

ولكي نمثل من جديد حياة الانسان القديم اشرنا الى خطورة القرائن المصدرية في هذا الامر ، ذلك لاننا بدون هذه القرائن لا يمكننا البتة ان نصل الى الترتيب التاريخي . تصوّر مثلًا ماذا يكون المعلم من دقة فيما اذا كان المؤرخ لا يعلم عن بعض الوقائع التاريخية في شرقنا هذا الا انها حصلت منذ وقت قديم دون معرفته ايها سبق الآخر واي حدث منها كان ذا تأثير في غيره .

فالترتيب التاريخي الذي نحدده في كل من حفرياتنا هو ترتيب نسبي مكاني . اعني اننا نعلم او نحدد ترتيب الحوادث وسياقها الواحد بعد الاخر كصناعة الادوات مثلًا في كل حفرية من الحفريات على حدة . ولا يمكننا الاستدلال من ذلك على مدى الزمن الذي بقي فيه ذلك الشكل من الادوات الصناعية منتشرًا في جميع المناطق بل في المنطقة التي نعمل فيها . وهذا يجعل المقابلة بين مختلف المناطق امرًا ضروريًا . مع ذلك اذا تيسّر لنا كشف حادث جيولوجي جرى في زمن واحد ضمن منطقة واحدة معينة وامكننا قياس زمنه الجيولوجي بالسنين نكون قد توصلنا الى تحديد تاريخي شبه راهن لارتكازه على شواهد جيولوجية . فلا يمكن القول بترتيب تاريخي جازم الا اذا امكن ضبطه تماماً بمقاييس السنين .

---

١) وقد قسّم العالم غارود D. A. E. Garrod, *the Upper Paleolithic in the Light of Recent Discovery*, Proceedings of the Prehistoric Society of London, Vol. IV 1938, pages 1-36 العصر الاورينياسي القديم الى ثلاثة اطوار : الحديث منه ودعاه Chatelperronien والمتوسط واحتفظ له باسم الاورينياسي القديم، والقديم فسماه Gravetien وهي اسماء منسوبة الى امكنة أجريت فيها حفريات مثمرة . واما في كسار عقيل فتعود حفرياتنا الى Chatelperronien فقط، ولكنا استعملنا كلمة Aurignacien وهي كافية لغايتنا .

وعلى كلّ فلا يحق لنا الجزم بان هـذه الصناعة او تلك انتقلت من هذه الناحية الى غيرها ، الا اذا تأكدنا تعيين المنطقة التي ظهرت فيها بادئ ذي بدء . وكيف تنقلت بعد ذلك . وهذه لعمري نقطة اساسية لان تمثيل تتابع الصناعات وتطوّرها في منطقة معينة هو ذو خطورة كبرى لمؤرخ العاديات ، بل هو من اختصاصيّات علمه . ولكنه يحتاج الى كثير غير ذلك ، اذ من النادر ان تكون اداة من الادوات ، وطريقة من الطرق ، او فكرة من الافكار ، قد تطورت في مناطق مختلفة مع استقلال احداها عن الاخرى . والذي حصل في اغلب الاحوال هو ان الجديد الذي استنبط في مركز ما كان يمتد وينتقل الى غيره الآهل بالاقوام المجاورة . وهؤلاء الجيران كانوا بدورهم ينقلونه الى سواهم بعد ان يدخلوا عليه بعض التعديل والتحسين[1] . فمعرفة مثل هذه العلاقات المتبادلة بين مختلف المناطق والشعوب هي غاية الباحثين عن حوادث ما قبل التاريخ ، كما ان مؤرخ الرجل العصري لا يكتفي بسرد كل حادث من الحوادث باطناب وتدقيق ، بل يسعى وراء كشف المؤثرات الاجتماعية ، ويتناول ببحثه العلاقات المتبادلة بين الدول والجماعات ، مبيّناً تسلسلها بعضها من بعض وماذا كانت عللها الاولية ونتائجها الاخيرة .

ولنعد اخيراً الى موضوع الادوات المستخرجة من كسارعقيل فنرى من واجبنا القول اننا اكتشفنا بين الادوات العائدة الى طور الاورينياسيان مخارز من العظم كانت ، على بساطتها ، بوادر لما تبعها من اشياء كثيرة الخطورة تفوقها اتقاناً وجمالاً بالنسبة الى مثيلاتها من مكتشفات الطور الپاليوليتيكي (اي الظرّاني القديم) المكتشفة في اوربة .

في هذا الطور نفسه ، استخرجت الحجارة المستديرة التي كانت تستعمل لسحق المادة الترابية الحمراء المعروفة بالمغرة ، ولا يُحتمل ان تكون هذه المادة الحمراء قد استعملت لغير التجميل ، وذلك بطلي بشرة الوجه بها كما لا يزال دارجاً حتى الان عند بعض الشعوب الابتدائية . ولسوء الحظّ لم نجد شيئاً من

---

١) راجع الدرس القيّم الذي كتبه الاستاذ كروبر عن مثل هذا الانتشار في كتابه المسمى «انتروپولوجيه» . A. Kroeber, *Anthropolcgy*, New-York, 1932

الآثار الفنية في كسار عقيل . اما في اوربة فتخصّ هذه الاثار بالطور الاخر من العصر الباليولتيكي القديم والتصاوير والرسوم المستخرجة هناك وجدت في اعماق المغاور .

درس العظام الاثرية في كسار عقيل

لا تشكل العظام الاثرية المستخرجة من كسار عقيل القسم الاهم من العاديات التي عُثر عليها في ارضه . ولكن دراستها ذات فائدة جزيلة .

فهناك مظهران خطيران للحياة الحيوانية القديمة في بلادنا يسترعيان النظر . الاول عثورنا على عدد ليس بقليل يناهز الالوف من اصداف الحلزون الصغير ، اي البزّاق[١] في عمق يهبط قليلاً عن الطبقة التي وجد فيها الهيكلان البشريان. ثم انقطعت هذه الاصداف بصورة فجائية جازمة . والذي يُرجح في تفسير ذلك ان شعوب الطور الاورينياسي في انطلياس كانوا يتغذون بالبزاق بكثرة بينما كان غيرهم من الشعوب ، ومنهم النياندرتال العائدين الى طور «ليفالوا موستريان» لا يعرفون هذه العادة اي عادة التغذي بالبزاق.

فوجود هذه الاصداف يؤدي الى نتائج ذات اهمية في ترتيب ازمنة الصناعات في كسار عقيل . وهكذا ينال البزّاق الحقير اهمية خطيرة في العصور السابقة التاريخ .

المظهر الثاني ، الذي يفوق المظهر الاول خطورة ، هو التغير الكبير الذي نشهده حالاً في الحفريات على عمق ١٦ متراً ، اذ عثرنا هناك على بقايا عظام الحيوان المعروف بوحيد القرن مع غيره من عظام حيوانات تصعب معرفتها[٢] تصور الفرق بين ما كان عليه لبنان سابقاً وكيف اصبح الان خصوصاً في اثناء الصيف ،

١) هذه الاصداف مكوّنة خاصة من جنس الهليكس (Helix) وهو جنس من الحلزون يشابه تماماً جنس البزاق الذي نأكله نحن اليوم . وهناك عدد كبير من جنس الپاتلا (Patella) والتروكوس (Trochus) وكلاهما من الجنس الآتي عن شاطىء البحر.

٢) هذا الحيوان الوحيد القرن الذي اسماه مس بيت Bate في حفريات جبل الكرمل باسم : Rhinoceros cf. hemitocchus يختلف في كل حال عن وحيد القرن البارد المكتشف في اوربا في العهد البليوستوسيني . واما غيره من الحيوانات المكتشفة معه في كسار عقيل فهي الضبع الكبيرة Hyana crocuta والجاموس Bubalus وعدد كبير من الحيوانات الصغيرة مثل Arvicolinae و Cricetinae

الفصل الحار الناشف ، فان هذه الحيوانات الوحيدة القرن لو كانت لا تزال باقية لما استطاعت العيش الان في منطقة انطلياس . واننا نعلم من الابحاث التي اجريت في مناطق اخرى اننا في ابتداء الطور الاخير للعصر الثلجي في اوربة نجد تغييرًا عاماً في جنس الحيوانات[١] التي كانت تقطن هناك ، ونشاهد ما يماثل ذلك في جوار جبل الكرمل[٢] .وهذا يساعدنا على وصل طبقات حفرياتنا بطبقات سائر المناطق التي كانت عرضة لمثل هذا التغيير . وسنعود الى متابعة هذا البحث في موضع آخر .

ونتذكر الآن ان البقايا العظمية التي عُثر عليها في كسار عقيل تعود الى الحيوانات التي تؤكل ، اعني الحيوانات التي كان الانسان القديم يصطادها ثم ينقلها الى منزله للاقتيات بلحمها .

وهنا عامل جديد يحدو الى التمييز بان ميل السكان في هذه المنطقة الى الطعام كان يتراوح بين البزاق ولحوم الحيوانات مع ذلك يمكننا التاكيد ان الحيوانات التي يُعثر على بقاياها بكثرة في احدى طبقات حفرياتنا كانت تقطن بكثرة في هذه المنطقة في ذاك الزمان . وبعض تلك الحيوانات كالايائل مثلًا تفضل المناخ الرطب حيث الجبال والاودية المغطاة بالغابات . اما غيرها مثل الغزلان فتفضل الصحارى والبراري[٣] .فبامكاننا اذن ان نحصي بقايا هذه العظام الحيوانية فنستنتج من تغلب جنس منها على آخر كيف كانت حالة المناخ في

---

١) راجع : F. E. Zeuner, *Dating the Past*, London, 1946, p. 229

٢) راجع : F. E. Zeuner, *op. cit.* : and D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, *The Stone Age of Mount Carmel*, Vol. I, Oxford, 1937, p. 155 155

٣) ومما عثرنا عليه كثيرًا في حفرياتنا بقايا الايائل Dama mesopotamica كذلك الايل الاحمر المعروف باسم Capreolus capreolus والمزى .Capra sp . فهذان الاخيران مع الغزال .Gazella sp يكثر عددها في الطبقات الحفرية الاحدث عهدًا . واما الخنزير البري Sus scrofa والبقر فيكثر عددها كلما عمقنا في الحفر وابتعدنا عن التاريخ ، واما غير ذلك من الحيوانات فيعثر عليها بصورة نادرة مثل عظام الدب الاسمر الصغير Ursus arctos ، ومن عائد الى فهد .Panthera pardus كذلك العظام العائدة الى الثعلب .Vulpes sp .

ذلك الوقت . وهذا العمل قد أجري بنجاح باهر في حفريات جبل الكرمل[١] واملنا ان تخصص مثل هذا الدرس بالحيوانات المكتشفة في كسار عقيل ، وان نستنتج منها حقائق علمية ثابتة ، واخص هذه الحيوانات عدد كبير من الايائل والمعزى والغزلان والخنزير البري والبقر ، وعدد قليل من الدب الاسمر والثعلب والجاموس والضبع من الجنس الضخم الخ . . .

والجدير بالذكر اننا لم نجد في كسار عقيل اثراً للسمك . ويستنتج من ذلك – الّا اذا ظهر ما يفيد الخلاف – ان سكان كسار عقيل الاقدمين لم يكونوا من الصيادين ، ولا من اكلة السمك ، الا اذا كانوا ياكلون السمك على شاطئ البحر دون ان ياتوا به الى منازلهم في النقطة الجاري الحفر فيها . وهذا الامر يبدو لنا غريباً لانهم لم يتأخروا عن نقل الاصداف البحرية اليها ، فكيف اغضوا عن نقل الاسماك .

ومعلومٌ ان العلماء اهتدوا في الازمان المتأخرة الى طريقة جديدة لفحص مثل هذه الشؤون تكاد لا تعدو الحقيقة وقد اسموها « طريقة فحص الطلع » (والطلع هو الغبار الذي تلقح به الازهار بعضها من بعض) .

هذا الطلع الواقع في الارض من النبات والاشجار منذ آلاف السنين يفحص ويحدّد به جنس الاشجار الذي كان ينشره في ذلك العهد ، وتحدد ايضاً كثافتها بطريقة ذات حساب يكاد لا يختلف عن الحساب المستعمَل اليوم في فحص الدم في مخابر مستشفياتنا[٢] .

هذه الطريقة افادتنا كثيراً في مكتشفات شمالي اوربة ، وربما تكون ايضاً ذات فائدة في مكتشفات كسار عقيل . ولكن الاحوال هنا لم تكن تساعد على حفظ الطلع ، كما كانت تساعد في اقطار اوربة الشمالية ، ولا يسعنا الا انتظار نتيجة الفحص الجاري الآن حتى يمكننا الحكم .

---

١) D. A. E. Garrod and D. M. A. Bate, *The Stone Age of Mount Carmel*, Vol. I, p. 141 - 2.

٢) G. Erdman, *An Introduction to Pollen Analysis*, Waltham, Mass., 1943

البقايا البشرية في كسار عقيل

سبق لنا ان تحدثنا عن كشف الهيكلين البشريين في مكان لا اثر فيه لمدفن خاص لها . فانهما وُجدا في ارض تحولت الى حجر بمفعول تسرّب المياه الكلسية اليها . واذ كنا حتى الآن لم نتمكن من فصلهما عن موقعهما الحجري، كان من المتعذر علينا ان نثبت شيئاً عنهما سوى القول انهما وجدا . ومع ذلك، بما ان جمجمة واحدة منها وجدت خارجة في قسم منها عن المنطقة الحجرية، فهذه يمكنا أن نبدي بشأنها بعض الملحوظات[١] .

هذه الجمجمة لفتى كان حين وفاته في نحو الثامنة من عمره، نستنتج ذلك من حالة اسنانه، فان العمر المتوسط للاسنان عند فتيان هذا العصر معروف . ويجوز لنا القول ان هذا العمر لم يتغيّر كثيراً عن عمر الفتيان في تلك العهود العريقة في القدم . اما القحف الدماغي فيه فيشابه تماماً في الحجم والشكل وكثافة العظم الاقحاف امثاله في انسان هذا العصر .

والهيكل يعود الى شكل الرجل المعروف عند العلماء الاثريين باسم « الرجل العاقل » (Homo Sapiens)، اما اسنانه فاكبر مما توجد عادة عند امثاله من الاطفال المعاصرين وفي فكه الاسفل شيء من الغلاظة، وخدّاه مهما دققت في البحث يظهران غير موجودين . كذلك لم نعثر على الانحدار الخلفي الذي يلاحظ في قمة الوجنة في جنس الانسان النياندرتالي، وانما وجنته قائمة بصورة عمودية مع استواء كالصفحة . وهذا لا ريب من اخص ملامح الاقدمين، على انه يوجد بعض الاوقات حتى بين افراد عصرنا الحالي.[٢]

وبما ان هذين الهيكلين يعودان الى صدر الطور البشري الاورينياسي

---

١) راجع ما كتبه المؤلف عن ذلك في مقاله : Aurignacian Man in Syria (Abstract), *American Journal of Physical Anthropology*, New Series, Volume 4, 1946, pages 252 - 3.

٢) تجد امثال ذلك الشكل عند اهالي كاليدونيا الجديدة New-Caledonia وقد خصص له الاستاذ سارازن درساً في كتابه :

F. Sarasin, *Atlas zur Anthropologie der Neu - Caledonier und Loyalty - Insulaner*, Berlin, 1922.

مباشرةً بعد الطور لڤالوا ـ موستيه ، الذي يمت بالصلة الى اقوام النيـاندرتال ، وبما ان هناك مظاهر واضحة لمتابعة الصناعة العائدة الى طور لڤالوا — موستيه في الطور الاورينياسي ، فينجم عن ذلك ان لهذه البقايا المكتشفة عندنا خطورة عظمى . ومن المحتمل ان نجد هناك ايضاً اختلاطاً في شكل الانسان في ذلك العهد، كما وجد هذا الاختلاط في عصر اكثر قدماً في حفريات جبل الكرمل.[١] وعلى كل فلهذين الهيكلين خطورة كبرى لانهما اول الموجود من نوعهما من العصر الاورينياسي في الشرق الادنى .

جيولوجية كسارعقيل[٢]

لقد ميّزنا عدة طبقات جيولوجية في ارض كسار عقيل : منهـا ما يعرف بلونه الاحمر ، ومنها بصلابته الدلغانية ، ومنها برمله ، ومنها بجصاه . ولا نذكر هذه التفاصيل رغبةً منا في معالجة علم الجيولوجيـة ، ولكن لان الاوضاع الجيولوجية تستطيع ان تساعدنا ، وهي في الواقـع تساعدنا على فهم الاحوال الجوية خاصة ، التي تقلّب فيها تاريخ الانسان القديم في كسار عقيل . ولا سيا لانها تمكننا من وضع اركان الترتيب التاريخي المعروف « بالكرونولوجية » او علم تقويم الازمنة .

واننا مع غضّ النظر عن الظاهرات الجيولوجية المفيدة بذاتها ، وأن تكن غير مهمة ، لا يسعنا الا الاشارة الا ثلاث كتل او مناطق ارضيـة ، وهي جوهرية فيما يخص معارفنا الحـالية للترتيب التاريخي (الكرونولوجية) في كسار عقيل .

وزبدة القول ان تلك المناطق هي عبارة عن طبقة او طبقتين من الدلغان

---

(١) راجع : A. Keith and T. Mc. Cown, *The Stone Age of Mount Carmel*, Volume II, Oxford, 1939

(٢) وجه الاستاذ هربرت رايت (Herbert E. Wright العالم) الجيولوجي التابع لبعثتنا العلمية الجيولوجية الينا بعض ملاحظات قال فيها : ان الركامات المكتشفة في كسار عقيل ترجع باجمعها الى العصر الثلجي الاخير . ويتطلب هذا الرأي بحثاً اوسع ومقابلات مع القرائن للتوصل الى نتيجة ثابتة لتقدير الزمن الجيولوجي في المنطقة المجاورة لكسار عقيل .

اللزج ، والحصى الصغيرة الخشنة وتحتها بساط من الدلغان الاحمر الصافي صفاء يكاد يكون تاماً.

وهذه المناطق تمثل «الاطوار المطيرة» . وذلك يحتاج الى بعض الايضاح.

في شمالي اوربة ، في زمن رسوب الطبقات التي ذكرناها ، ظهر راس جبل جليدي جبار ما لبث ان زحف من الشمال يقدم مرةً ويحجم اخرى ، وفي حركاته هذه كانت العواصف الهوجاء تطوقه وتهب منه في ذهابه وايابه.

وفي غضونها على بعد الوف الاميال ، في لبنان ، كانت الانواء تتأثر بمفاعيل الراس الجليدي فتحدث النشوفة طوراً والرطوبة تارةً ، فسميت ايام الرطوبة تلك « الايام المطيرة » (Pluvial periods)[1]

فكل من التشكيلات الجيولوجية التي ذكرناها كانت تتكوّن في طور من « الاطوار المطيرة » . فاذا صح كلامنا هـذا — وكل عالم جيولوجي يزور كسار عقيل يوافق على ان تشكيلاته الجيولوجيـة تمت في الطور الرطب — امكننا ان نربط بالاطوار المطيرة زحفات الجليد الثلاث التي حدثت في العهد الاقرب زماناً منا ، ومن ثم تيسر لنـا ان نطبق على الشرق الادنى نواميس ترتيب الازمنة الذي وضعه الاوربيون وطبقوه على مثل تلـك الظاهرات التي وقعت في بلادهم في مثل العصر الذي نحن باحثوه الان في بلادنا .

وها نحن للمرة الاولى يمكننا التحقق باننا نستعمل الاصطلاحات التاريخية الجيولوجية ذاتها ، المستعملة على السواء في كسار عقيل في العهد الظراني الاول ، وفي اوربة في الامكنة المناسبة له قدماً . وان كل موضع في الشرق الادنى مجاور لكسار عقيل ، وله معه تناسب جيولوجي ، يتناسب واياه في رتبة واحدة على جدول الازمنة الجيولوجية التاريخية المعروف بجدول ترتيب الازمنـة او الكرونولوجيا . هذا اهم ما يجب ان نسترعي اليه الانظار فيما خص كسارعقيل عند درسنا الانسان الاول .

---

١) نظن ان الحجارة الصغيرة في مناطق الحفريـات الكبيرة وقعت من سقف المأوى الصخري تحت تأثير العوامل الطبيعية لا سيما الرطوبة الشديدة، وربما ايضاً تأثير التبلور. واما اللون الاحمر فهو ناتج عن تحول الرواسب الكلسية في المكان نفسه ، فاما بتحولها تركت المركبات الحديدية وغيرها من المواد في محلها ، فظهرت جذا اللون الاحمر .

ترتيب الازمنة التاريخية لكسار عقيل

آني استطيع تبيان الملاقات بين الجيولوجية وترتيب الازمنة في عاديات كسار عقيل ، وذلك على سبيل المحاولة والتخمين والترجيح ، مستنداً الى مختلف الادلة المأخوذة من المكان نفسه او من غيره من الامكنة . ان ترتيب الزمان بالضبط الكامل مع تاريخ السنين لامر جدّ عسير ، ومهما بذل فيه من عناء فلا يتعدى حدّ الافتراض . قال الاستاذ ف. ا. زوينر[1] ، من احدث العلماء عصراً : قد يكون بدأ عمران كسار عقيل من نحو ١٢٥٠٠٠ سنة ، وان اصبت في ظني كان الزمن الذي استغرقه عمر تلك الطبقات القائمة في كسار عقيل ، لا يقل عن الزمن الذي حدث فيه آخر تجمّد في شمالي اوربة .

ومع ذلك فان تقويم زوينر هذا عرضة للنقاش والجدل مع غيره من العلماء ، ولست ابغي الدخول واياهم في مناظرة حول هذا الموضوع في مقالي هذا .

وغاية ما اريد بحثه هنا انما هو تاريخ السنين النسبي ، وبوجه خاص الترتيب الزمني الجيولوجي مع مراعاة الوقت الذي برزت فيه الحيوانات الى عالم الحياة ، واعتبار ما يؤديه لنا علم ما وراء التاريخ وعلم الجيولوجية من معلومات وفوائد . فيغلب على ظني ان طبقاتنا هذه تكوّنت ردّاً لفعل الزحفات الثلاث التي حدثت في الطور الجليدي الاخير في اوربة .

فالزحفة الاولى او الابتدائية قد تكون حدثت عندما تشكلت طبقة كسار عقيل السفلى ، وموقعها في عمق ١٠ الى ١٦ متراً تحت سطح الارض .

اما الثانية فقد تاتي معاصرة للطبقة الواقعة على عمق ١٠ امتار .

وتكون الثالثة معاصرة للطبقة الواقعة على عمق متر و٥٠ سنتيمتراً[2] . ولم نأتِ بهذه الاقوال الا من باب الحدس والرجم اذ لا يسعنا التأكيد . كما انا نشكّ في ان مدة ما من الزمن انقضت بين زحف الجليد وحدوث «الطور المطير»

---

١) راجع : F.E. Zeuner, *Dating the Past*, London, 1945, e. g. page 145 and id., *The Pleistocene period*, London, 1944.

٢) حسب تقدير العالم زوينر Zeuner المذكور تعود هذه الطبقات الى ١١٥ الف سنة و٧٢ الف سنة و٢٢ الف سنة .

في لبنان ، وليس من يعرف كم كانت تلك المدة . ولكن ، ونحن في معالجة العهد الحجري القديم ، نفترض مقاييس الزمان فضفاضة على خلاف التاريخ المصري الذي يضبط الزمان محددًا بالسنين والشهور والايام . اما نحن ، معشر الباحثين عن حال الانسان القديم ، فلا بدّ لنا من الاكتفاء بتقويمنا الزمني على علاته ولو اضعنا منه الوف السنين . هذا ولا بد من ان نتحقق من اننا ندرس التطوّرات في نواحي الصناعة والفن المتصلة بالحياة الاجتماعية . وهذه تطلبت زمانًا اكثر طولًا ، وقد تحركت بحركات ابطأ جدًا مما حدث مع امثالها في عالمنا المصري . عهدئذٍ اي في العهد الظراني الاول لم يكن المذياع ، ولم تكن الطيارات ، مما يؤدّي الى سرعة التواصل في الافكار والى استعجال وقوع الحوادث .

ما نعرفه عن الانسان القديم

لقد بحثنا معيشة الانسان القديم والاساليب العلمية في درس بقاياه ، وامعنا النظر في كيفية الوقائع المختصة به وبتلك البقايا . ومن البديهي اننا كلما تقربنا بالزمان الى الانسان المصري اتسع المجال لاكتشافاتنا وتعلماتنا عن انسان العصر الحجري الاقدم ، وقلنا اننا نستطيع ان نعين له موضعًا ما ثابتًا في احد اطوار الزمان . ويمكننا بكل سهولة ان نقرر في ايّ جوّ عاش في مختلف اطوار حياته ، وان نعرف الكثير من اغذيته وقد تزداد معرفتنا مع تكاثر الحفريات بما كان لديه من آلات .

هذا وقد المعنا في بحثنا السابق حول موضوع التراب الحديدي ، الى عادات الشعوب غير المتمدنة ، وهي تساعدنا اليوم ، على ان نعرف اكيدًا كيف كان الاقدمون يستخدمون بعض الاشياء . والآلات وربما قدمت لنا الاتنولوجية ، وهي علم عادات الانسان ، المادة اللازمة لابراز الحكم في هذه الامور تارةً عن يقين تامّ ، وطورًا على سبيل التكهن والتخمين .

ولقد تزداد حاجتنا الى التقيد بهذه القيود في ما نبحثه من الاحداث المتقاربة من عهد التاريخ المكتوب .

اما في العهد الحجري القديم فلا تزال اشياء كثيرة غير التي ذكرناها لا يعرف شيء من احوالها ، ويعتبرهـا العلماء سرًّا مغلقاً . وليس بين ايدينـا حتى الان ما يفتح لنـا مغمضاتها او يظهر امامنا طريقة احتمالهـا حتى في الامس القريب منا .

وبينما انا اخطّ هذه الاسطر ، وجدنا في كسار عقيل قرني بقر لم يبقَ منهما الا اصلاهما ، مع قطعة من جمجمة ملتصقة بكلٍ منهما . وقـد وجد الواحد بجانب الاخر وكأنهما صنعا لغاية ما ، ولكن مهما قلت الآن عنها فلا يعدو قولي ان يكون ضرباً من التكهن والتخمين .

وهناك اشياء لا يمكننا حلّ رموزها . واشياء اخر لم نعثر قط على اثر لها. مثال ذلك القول اليس من المستحيل ان يكون الانسان قضى الاطوار القديمة لتمدنه دون ان يفكر في صنع بضع آلات خشبية ، ولو قدرنا انه صنعها افلا تكون مع مرور الايام قد بليت وعفا اثرها . واذا صح قولنا هذا في الاشياء المادية فكم يكون صحيحاً في الشؤون المعنويـة . مما لا نزال نجهل امره كالنظام الاجتماعي ، ومبادىء العدالة ، وطرق التفكير وغير ذلك .

تلك هي العناصر الهامة التي تبين الفرق الجوهري بين الانسان والحيوان غير الناطق .

ومع ذلك ، يمكننا بقليل من الحصافة وكثير من المعرفة ، ان نقتبس من درجة اتقان الشغل في الآلات بصيصاً من النور حول صناعة العامل ، وباستطاعتنا ، ونحن عائدون الى الازمنة السوالف ، ان نتكهن عن نشأة النظام الاجتماعي ، ونقابل بين البلاد الآهلة والبلاد غير الآهلة ، ومن ذلك نستنتج عقلياً ان الدفن عن سابق تصميم معناه بعض الاعتقاد بحياة اخرى بعد هذه الحياة الدنيا . وان آثار الانسان القديم تشهد مباشرة ببلوغه درجة من الصناعة والفن في محطة من الزمن يمكن الاشارة اليها . وان هذه الحالة ، على ما فيها من صناعة وفن ، لا تؤدي الى ادلة تستدعي اليقين فيما يختص بغير انواع من العادات ، لان تلك الآثار لم تمثل الا تمثيلاً ضئيلاً في مكتشفاتنا . والبرهان على ذلك ان بعض القبائل في يومنا هذا لم تبلغ بعد من الرقي الصناعي والفني

الا درجة حقيرة جدًا ، ومع ذلك فقد تموج فيها مجاري افكار سامية مثلًا فيما يخص طبيعة الله[1] .

وان رجال العلم لا يجرأون على الاشادة بنظرياتهم فيما يخص الانسان الاول، كما لو كانت هذه النظريات ثابتة لا جدل في صحتها ، وهم يحجمون عن الخوض في بحث الامور العائدة الى ما وراء التاريخ ، فيتربصون ولا ينطقون الا بالفطنة ، والعاقل يميز في ما يعرفه معرفة الترجيح او اليقين .

الختام

لكل حكاية مغزاها ولحكاية الانسان الاول مغزى . اتمنى للقراء ان يقدروا ما يقتضيه مثل هذا الدرس من دقة وتعب ، وان يتخطوا ذلك فينظروا بعين الاحترام الى الانسان الاول ، والى البقايا التي تشهد بصنع يده . فاذا برز شيء منها مثلًا في حفر اساس لبناء بيت ، اصبح من الواجب عليهم ابلاغ الامر حالًا الى دائرة الآثار مقدمين لها المعلومات الكافية السريعة عن حالة الموضع وعمقه وطبيعة ارضه وتاريخ اليوم الذي حصل فيه الاكتشاف .

ان اثار الزمان الغابر لجديرة بان يحفظها الجيل الحاضر . انها لثمينة في نظر رجال العلم ، وثمينة بذاتها لا من حيث هي تحف من روائع المتاحف ولا من حيث تقديرها بالذهب الاصفر الرنان ، ولكن من حيث انها مواد يتسع بظهورها ميدان المعرفة عن الانسان القديم وتاريخه .

هذا وان البحث في الانسان بذاته ، بعد البحث في طبيعة الله وتدبيره ، لأغلى من ان تقدر قيمته .

---

[1] راجع كتاب العلامة الاب شميد عن ظهور اول تفكير بالله: Wilhelm Schmidt, *Die Ursprung des Gottesidee.*

وثائق تاريخية عن حلب

في القرن الثامن عشر

١) عدد السكان ٢) الغرامات ٣) التراجمة

بقلم الاب فردينان تونل اليسوعي

سيكون هذا المقال وما سيليه ، ان شاء الله ، فاتحة لسلسلة ثالثة نتبع ما نشرناه في المشرق (١٩٤٠-١٩٤١) وقد طبع على حدة في مجلدين الاول عن يومية البخاش والحوادث المتصلة بها في منتصف القرن التاسع عشر والثاني عن منظومة الشيخ ابي الوفاء الرفاعي في اولياء حلب المسلمين.

وسيألف من هذه السلسلة الجديدة مجلد ثالث من « الوثائق » نرجو ان يستقبله الادباء وعموم القراء الكرام بالرضى والارتياح كالكتابين السابقين.

١) عدد سكان حلب في القرن الثامن عشر

ان العلامة سوفاجه الفرنسي في الكتاب الجليل الذي وضعه عن حلب[1] وساهمت بنشره الجمعية العلمية للنقوش والاداب سنة ١٩٤١ ابدى تدقيقاً لم يسبقه اليه غيره في وصف التطور الذي حدث في الشهباء ، منذ تأسيسها في القرن العشرين قبل المسيح الى منتصف القرن التاسع عشر بعده.

ليست غايتي ان اعرّف الى القراء هذا المؤلف الخطير الا اني قرأت في الصفحة الـ ٢٣٨ من المجلد الاول منه حاشية (رقمها ٩٠٨) في عدد سكان المدينة في القرن الثامن عشر فاردت ان اقتطف منها اهمها واضيف اليه بعض تعليقات عثرت عليها في اثناء مطالعاتي في دار الكتب المارونية في حلب

1) J. Sauvaget, Directeur d'Etudes à l'Ecole Pratique des Hautes-Etudes, (Sorbonne): ALEP, Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX[e] siècle, I[e] Volume : Texte, II[e] Volume : Album. Petit in f°. Paris, Geuthner, 1941 .

فيكون ذلك تكملةً لما حرره العلامة سوقاجه يتفكه به محبو المطالعة من اخواننا الشرقيين عامة ومن مواطنينا الحلبيين خاصةً.

قال: ذهب الروّاد الاوروبيون شتى المذاهب في تقديرهم عدد سكان حلب فتضاربت اقوالهم وتباينت احصاءاتهم. وذكرت لائحة باسمائهم انتخبتُ منها اولئك الذين تكلموا في العهد الذي يهمنا امره وهي هذه:

دارڤيو قنصل فرنسة في حلب سنة ١٦٧٩ قدر عدد سكانها استناداً على عدد المصابيح التي تضاء في بيوتها فكانت ١٣٣٦٠ مصباحاً.

شيلّينجر في سفرة اليها سنة ١٧٢٧ قدّر سكانها بمئتي الف نسمة.

ميلّر سنة ١٧٣٥ قدرهم بخمس مئة الف.

اوتر سنة ١٧٤٨ عدّد البيوت الا الخانات والمدارس وغيرها فقدّرها باربعة عشر الف بيت.

ڤولنه سافر الى سورية ومصر سنة ١٧٨٣ و١٧٨٤ و ١٧٨٥ وكتب عن حلب فاحصى سكانها فكانوا مئة الف.

البارون دي طوط سنة ١٧٨٤ قدر عددهم بمئة وخمسين الفاً.

تايلور في رحلته الى الهند بطريق الصحراء الكبرى سنة ١٧٨٩ مرَّ بحلب وعدّ سكانها فكانوا سبعين الفاً.

ديڤيزين قنصل انكلترة في حلب قدّر سكانها سنة ١٧٩٣ بستمئة وثلاثين الفاً.

روسل في كتابه عن تاريخ حلب الطبيعي المطبوع في لندن سنة ١٧٩٤ حسبهم مئتين وخمسة وثلاثين الفاً.

وختم العلامة سوقاجه كلامه فقال ان احصاء دارڤيو دون غيره هو وحده حقيق بان يعتمد عليه.

واننا في اثناء مراجعتنا سجل الوفيات من ٢٦ ك ٢ سنة ١٧٣٣ الى ١٤ ك٢ سنة ١٧٦٤ المحفوظ في خزانة آثار الطائفة المارونية المذكورة سابقاً عثرنا على وثيقة باسم القس انطون صقر جاء فيها احصاء البلدة استناداً الى اربع حجج:

١ : نسبة عدد ابناء الطوائف الى ما يترتب عليها من الضرائب.
٢ : التقدير اخذاً عن اقوال الاوروبيين الموجودين في البلد آنذاك.
٣ : تخمين عدد السكان من كمية الخبز او الطحين المطلوبة يومياً لاعاشتهم.
٤ : المقابلة بين عدد الاموات نسبةً الى الاحياء في مختلف الطوائف على مدى السنة الواحدة.

فجاء الاحصاء مستنداً الى قواعد ثابتة تمكننا من تقدير سكان حلب في منتصف القرن الثامن عشر بثلاث مئة الف نسمة.

ولم نستطع ان نعرف من هو القس انطون صقر محرر الاحصاء. فلعله كان من الكهنة اللبنانيين الذين كانوا يأتون الى حلب لخدمة الرعية ولا يزال سجل الطائفة المارونية في حلب يحفظ اسماء عدد غير قليل منهم. وكان يدور بالنورية مع المطران جبرائيل حوشب لزيارة الرعية. وترك حسابات سنذكرها وهي غير مضبوطة. ولعل السبب في عدم ضبطها اما المؤلف ذاته[1] واما ناسخه واما طريقة توزيع التذاكر فان ذلك التوزيع لم يكن يجري بالنسبة الى الاحصاء على الاطلاق. كان يُضرب مثلاً على كل مئة شخص من ابناء الطائفة عدد خاص من التذاكر الملزمة بدفع المال الاميري المطلوب ولكن كان يتناول فقط من ابنائها القادرين على الدفع عن انفسهم ورُبما كلفوا الدفع عن غيرهم من الفقراء. ومن ثم حصل التفاوت في التناسب بين عدد التذاكر وعدد ابناء الطائفة وبين القراريط المذكورة كما سترى. وليس في ذلك عظيم اهمية فيما يخص موضوعنا ما دامت النتيجة واضحة صحيحة. مثال ذلك مشكل حساب غلطت في عملياته ومع ذلك بلغت الى حله الصوابي. واليك الوثيقة على علاتها :

«يوجد بمدينة حلب نحو ثلاث كرات[2] وثلث من البشر منهم ثلاث كرات مسلمين ومنهم ثلاثين الف نصارى ومنهم اربعة آلاف يهود وايضاح ذلك هذا هو :

---

١) ان بعض الارقام يتبعها الكاتب بخط يشبه ذيل الهاء فسرناه بكلمة [تقريباً]
٢) الكرة : مئة الف

اولًا من خصوص عدة انفار النصارى في سنة ١١٥٣ هجرة الموافقة الى سنة ١٧٤٠ مسيحية ادعوا طايفة الموارنة على طايفة الروم امام حضرة احمد باشي الدوزكلي والي حلب وامام حضرة الملّا حاكم الشريعة وقالوا بدعواهم ان الغرامات العرفية التي تنزل على النصارى القاطنين بحلب يوزعها طايفة الروم على طايفتنا باعتبار خمسة قراريط ونصف قيراط ويصير لنا بسبب ذلك غدر . ونريد الآن ان توزع الغرامات العرفية التي تنزل بعد اليوم على الاربع طوايف النصارى بحسب الروس [كذا وهو يريد عدد الاشخاص] فحكم لهم حضرة الوزير وحضرة الملّا المحترمين بذلك وامروا ان يراجع دفتر الجزية لاجل اخذ عدد روس كل طايفة من الطوايف الاربعة لبيان ما يلحق كل طايفة منها باعتبار الروس فلحق طايفة الموارنة بعدد اعتبار روسهم بموجب دفتر الجزية قيراطان وثلثا قيراط لكون عدة روسهم باعتبار تذاكر الجزية تسعماية تذكرة ولحق طايفة السريان بعدد اعتبار روسهم ثلاثة قراريط وثلث قيراط لكون عدة تذاكر جزيتهم الف وماية وثلاثون تذكرة . ولحق طايفة الارمن باعتبار عدد روسهم ستة قراريط لكون عدة تذاكر جزيتهم الفين وثلاثون تذكرة . ولحق طايفة الروم بعدد اعتبار روسهم اثنا عشر قيراطًا لكون عدة تذاكر جزيتهم اربعة آلاف وستين تذكرة».

من المعلوم ان رئيس كل طايفة يترتب عليه ان يؤدي عن طائفته المال المضروب بموجب عدد التذاكر. وهذه التذاكر توزع على ابناء الطائفة والغني منهم يؤدي المال عن الفقير .

«طايفة الموارنة قيراط عدد	٢	تذاكر عدد	٩٠٠ نفر	٣٠٠٠
طايفة السريان قيراط عدد	٣	تذاكر عدد	١١٣٠ نفر	٣٧٥٠
طايفة الارمن قيراط عدد	٦	تذاكر عدد	٢٠٣٠ نفر	٦٧٥٠
طايفة الروم قيراط عدد	١٣	تذاكر عدد	٤٠٦٠ نفر	١٣٥٠٠
	٢٤ قيراط		٨١١٠ (١)	٢٧٠٠٠

«يكون لحق كل قيراط ثلاثماية وثمانية وثلاثين تذكرة ٣٣٨ [تقريباً]

١) الصواب ٨١٢٠

ثم انا الحقير القسيس انطون صقر تلك السنة عينها اي سنة ١٧٤٠ ضبط [يريد ضبطت] انفار الموارنة حين كنا دايرين بجمع النورية فطلعوا ثلاثة آلاف وثلاثة وثلاثين نفر منهم دكورا الف وخمساية وواحد ومنهم اناث الف وخمساية واثنين وثلاثين نفر فيكون لحق كل قيراط من قراريط الموارنة الف ومائة وخمسة وعشرين الف[١] .

« فعلى هذا القياس يكون السريان ثلاثة آلاف وسبعماية وخمسين نفر . ويكونوا الارمن ستة آلاف وسبعماية وخمسين نفر ويكونوا الروم ثلاثة عشر الف وخمساية نفر .

الموارنة	انفار عدد	٣٠٠٠
السريان	انفار عدد	٣٧٥٠
الارمن	انفار عدد	٦٧٥٠
الروم	انفار عدد	١٣٥٠٠
		٢٧٠٠٠

« ويوجد ايضاً بحلب نصارى عربية منهم اناس مزوجين بحلب والباقي غرباء مسافرين[٢] وهم خارجين عن حساب عدد النصارى الذين اخرجوه من دفتر الجزية وهو نحو ثلاثة آلاف نفر فيكون جملة النصارى الموجودين بحلب كبار وصغار رجال ونسا نحو ثلاثين الف .

« ثم نقول من خصوص عدد انفار اليهود فعلى موجب كلام وكلامهم انهم الف ومايتين واربعين تذكرة فعلى موجب حسابنا هذا يكونوا ثلاثة قراريط وثلثين قيراط ويكونوا اربعة آلاف ومائة وثلاثين نفر لان يلحق كل قيراط تذكرة ٣٣٨ [تقريباً ؟] ويلحق كل قيراط انفار ١١٣٥ [تقريباً ؟] .

« ثم نقول من جهت عدة انفار المسلمين

« قد استدلينا على عدة انفار البشر الموجودين بمدينة حلب من ثلاثة اوجه

---

١) ١١٢٥٠٠٠ لم استطع ان اتبين صحة هذا العدد .

٢) قال كامل الغزي في نهر الذهب ٣ ، ص ٢٩٨ : في ١١٥٣ كانت التراجمة من الانكليز في حلب فكان لهم فيها قنصل وعشرة تجار وقسيس وكاتب اسرار وطبيب .

« الوجه الاول وهو قد يوجد بحلب ناس من طايفة الافرنج معلمين بصناعة الهندسة وممارسين على تقدير عن البشر من بلادهم فقدروا البشر الموجودين بمدينة حلب انهم نحو ثلاث كرات وثلث .

والوجه الثاني هو قاطمية البلد من الحنطة لان قاطمية البلد كل يوم خمسين مكوك[1] حنطة والذي بياكلوا الخبز من السوق فهم اقل من ثلث البشر الموجودين بحلب . والباقي هم الذين اكثر من الثلثين الذي يتمونوا الحنطة فعلى هذا القياس تكون قاطمية البلد كل يوم مكوك ١٦٤ ماية واربعة وستين التي تكون شنبل ٢٦٢٤ وقدرنا كل شنبل ارطال ٢٤ فيكون طحين ارطال ٦٢٩٧٦ وحسبنا كل رطل طحين بيطلع رطل واربع اواق خبز فتكون جملة ارطال الخبز ٨٣٩٦٨ ثم قدرنا ان كل انسان بياكل كل يوم ثلاث اواق خبز فتكون جملة البشر على هذا الحساب انفار ٣٣٥٨٧٢ اي ثلاث كرات وخمسة وثلاثين الف وثمانماية واثنين وسبعين نفر . فهذا الحساب يكون زاد عن الثلاث كرات وثلث نفر ٢٥٣٩ .

« والوجه الثالث من عدد انفار موتى النصارى لان النصارى ثلاثين الف نفر مات منهم ١٥٨٧ فيكون مات منهم حساب خمسة بالماية . والمسلمين مات منهم خمسة عشر الف وماية فاذا حسبنا موتاهم خمسة بالماية نظير ما مات من النصارى فتكون عدة الاحياء ثلاثة كرات تمام والله اعلم » .

ذكرنا اسماء الرواد الاوربيين وما ذهبوا اليه من المذاهب في تقديرهم عدد سكان حلب في القرن الثامن عشر ولم نأت على ذكر المؤرخين العرب في هذا الصدد . ولماذا ؟ — لان بني عثمان كانوا في ذلك العصر يحكمون سورية فلم يكن للناطقين بالضاد مكانتهم في عالم الحياة الاجتماعية والسياسية التي تمتعوا بها فيما بعد بفضل اليقظة الوطنية والوعي القومي . فضلاً عن ان احصاء السكان طبقاً لقواعد دقيقة لم يأخذ بالانتشار في العالم المتمدن الا بمنذ عهد غير بعيد عن عهدنا . فاول احصاء في دول المانية كان سنة ١٧٤٢ ، وفي اسوج سنة ١٧٤٨ ، وفي الدانمرك سنة ١٧٦٩ ، وفي

---

١) المكوك : مكيال يسع صاعاً ونصف صاع او نحو ذلك .

اسبانيـة سنة ١٧٨٧ . اما في انكلترة فبعد ان وضعوا التصميمات للاحصاء العام سنة ١٧٥٣ لم ينفذوه بالواقع الا سنة ١٨٠١ . واخـذت من ثم سائر الدول تحصي سكانها وآخر من اتبع هذه الخطة من الدول في العالم المتمدن كانت تركية سنة ١٩٢٧ .

اما في سوريـة فكان آخر احصاء فيها في ٢٥ اذار الماضي ولم تظهر بعد نتائجه .

فيفيدنا ان نقابل بين عدد سكان حلب في القرن الثامن عشر وعددهم في عصرنا واليك احصاء سكان هذه المدينة في سنة ١٩٣٥ كما وصل الينا عن دائرة الاحصاء. وفي سنة ١٩٤٧ عن لسان محافظ حلب الامير مصطفى الشهابي (راجع جريدة التقدم الحلبية في ٢٢ ك٢ ١٩٤٧) .

احصاء سكان مدينة حلب اخذاً عن السجلات الرسمية وكلها على التقريب

	سنة ١٩٣٥	سنة ١٩٤٧
المسيحيون الكاثوليك		
الروم الملكيون	١٠١٠٣	١٢٢٧٩
الارمن	٦٧٥٤	٧١٥٣
السريان	٥١٢٠	٦٢٨٤
الموارنة	٣١٥١	٢٨٣٨
الكلدان	١٨٥٢	
اللاتين	١٨٢٣	٢٢٥٣
المجموع	٢٨٨٠٣	
المسيحيون غير الكاثوليك		
الارمن	٤٩١١٤	٦١٥٢٩
الروم الملكيون	٣٥٠١	٦٣٥٢
السريان	٤٤٨٣	٥٦٣٣
البروتستانت	١٩٨٦	
المجموع	٥٩٠٨٤	

مجموع المسيحيين	٨٧٨٨٧	١١٣١٣١
المسلمون	١٥٣١١٤	٢٠٩٢١٤
اليهود	٩٩٦١ ومعهم الكلدان	١٣٩٠٢
المجموعات	٢٥٠٩٦٠	٣٣٦٢٤٧

هذا واذا نظرنا الى حركة انتقال السكان الى حلب من السنجق بعد انضمامه الى تركية ومن الجزيرة بعد وقوع حوادث سنة ١٩٤٥ لم نتعجب من التفاوت بين احصاءات سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٤٧

اما السبب في زيادة عدد الارمن غير الكاثوليك العظيمة فيما اذا قوبل بين احصائهم اليوم واحصائهم في منتصف القرن الثامن عشر كما قلنا فيظهر انه لم يك الا المذابح التي وقعت في ارمينية سنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٨ وخاصة جلاؤهم عن الاناضول وقيليقية في ايام « سفر برلك » او في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨

٢) الغرامات

بعيد كل البعد من فكرنا فيا اذا ما ذكرنا تظلم المسيحيين من حكامهم في ذلك العهد ان نلقي التبعة في اضطهادهم على العقلاء والصالحين من مواطنيهم الذين كانوا يشاطرونهم السراء والضراء في حياتهم .

وان ننسَ فلا ننسَ ما كان لحسن الجوار والتضامن بين الاهلين من الوسائل التي تقيهم شرور الساعة وما كان لآل العظم « السوريين » من الايادي البيضاء على بلادهم حين توليهم شؤونها كمحمد باشا العظم سنة ١١٧٧ هـ ١٧٦٣ م . فقد كان يتنكر ويتفقد احياء البلد ليلاً ليمنع الجور والفساد وهو الذي ابطل بدعة الدومان وهم جماعة كانوا يحتكرون اللحم ليبيعوه باغلى الاسعار . ولم تخلُ البلاد ولله الحمد تماماً من مثله . على ان عهد الباشاوات في تلك الايام كان غالباً عهد استبداد وطغيان مما لم تزل اقلام الكتبة والمؤرخين من عرب وعجم تتصدى لتبيانه .

كانت المناصب تعطى لا للذين يستحقونها دون غيرهم ولكن لمن كانوا يبتاعونها بالاصفر الرنان . حتى اذا فازوا بمرادهم وجلسوا على كرسي الحكم

اخذوا يسلبون الرعية اموالها ليعتاضوا مما فقدوه بالوصول الى مناصبهم[1].

واذا ارتفعت اسعار الحاجيات واشتدت ازمة اللحم او الخبز لم يكن من النادر ان يتآمر الحاكم خفية مع الجزارين او الطحانين على أن يساعدهم في احتكار اللحم او الطحين تلقاء الاموال الطائلة التي يبترها منهم . ومن ثم تحدث الاضطرابات « وتقوم البلد » ويهاجم الجياع دار الحكومة ويرتدون منها لنهب الاسواق فيضطرب حبل الامن وتشتعل الفتنة[2] . ويقع قتيل يغرم النصارى بدفع ديته فيما اذا كان وقوعه في حيهم او على مقربة منه . وربما دبت عقارب السعاية الى ما بين صفوفهم فيترافعون امام القضاة ويلجأ رؤساؤهم الروحيون الى التدخل في الامر مما يجر عليهم العذاب والسجن والاضطهاد والغرامات ومن ثم ترفع الشكاوي والدعاوي الى من كان باستطاعتهم التوسط بين الراعي الظالم والرعية التاعسة كالقناصل . فالقنصل كان غالباً من كبار التجار ذا مقام رفيع عند الباشا لانه كان بسعيه ونفوذه وحسن سياسته يساعد على تهدئة الخواطر واصلاح ذات البين . ومن الذين اشتهروا في تلك المهمة آنذاك اسرة بيت بيتشوتو القنصلية فقد كانوا تجاراً وصيارفة « يقضون القرض » للباشا عند اللزوم ولا يفوتهم فرصة للاستفادة من رهن املاك الدولة وشرائها على حساب الباشا . واليهم والى غيرهم من القناصل كان المضطهدون يلجأون في ضيقتهم . وربما افادهم التجاؤهم الى بطريركهم وكان لهذا صوت مسموع مما وراء الحدود فيبلغ آذان الباب العالي عن طريق السفارات واليك صدى لتلك الاستغاثة في آثار الطائفة المارونية المذكورة في اضبارة المطران جبرائيل حوشب (رقم ٧٨) « نسخة تحرير ابناء الطائفة بحلب الى البطريرك طوبيا (الخازن) تاريخ ١١ تشرين الاول سنة ١٧٥٦ وفيه يصفون الاضطهاد اللاحق بهم من الحكومة وعدم امكان احد من الكهنة والعوام الذهاب اليه لان اسم لبنان مكروه ... من قبل حكام البلد الذين لم يزالوا فاتحين افواههم ليبتلعونا ...

١) راجع كامل الغزي ، نهر الذهب ٣ : ٢٨٥ وما بعدها . وكتاب سوقاجه المذكور عن حلب ص ١٩٢ وما بعدها .

٢) راجع كامل الغزي نهر الذهب ٣ : ٢٩٧ في كلامه عن قتل شيخ المدارائية .

« ... ونحن احيا ويسلبوا مالنا . ونحن ما بقينا قادرين على العطا مثلما كنتم تعرفونا خصوصاً اذا عرف الحاكم ان الكهنة متوجهين الى الجبل لعند بطركهم فيمسك علينا حجج كثيرة ولو كانت بغير حق . من الجملة اسم بطرك جديد يقول لنا ابن فرمان . واسم الجبل مكروه عند حكام بلدنا . لان كلما غاب مسلماني يقولوا لنا ارسلتوه للجبل حتى يتنصر . ويا ما خسرنا اموال فوق طاقتنا بسبب هذه الكلمة . والشاهد لصحة قولنا هو امر اليهودي الذي فقد من حلب في الايام التي كان عندنا القس اغوسطينوس يازجي قدسكم والقس ارسانيوس شكري الحكيم . وكيف تهمونا بارساله الى الجبل وحبسوا مطراننا والقس ارسانيوس المذكور وبعض من الكهنة وجملة انفار من الطايفة مدة اثني عشر يوماً في الجنزير . ولم يخلصوا الا ببلغ عظيم من المال . فليسأل قدسكم القس اغوسطينوس المذكور فيخبركم بالجميع ومثله مرات كثيرة وهل يخفى سفر الكهنة عن الحكام فالعوانية كثيرون فلا تقاس بلادكم وحكامكم على بلادنا وحكامنا . انتم احرار مثل البلاد الافرنجية ونحن في الاسر والعبودية فلا يتعجب قدسكم من قولنا بان علينا اخطار عظيمة من توجه الكهنة نحو سيادتكم » .

واليك ما جاء في « اضبارة تحارير المطران جبرائيل حوشب » (ارتسم ١٧٣٢ توفي ١٧٦٣) .

« بيان مصاريف الذي انصرفت في زمان حضرة يعقوب باشا[1] . تحريراً في غرة شهر جماد الاول ١١٥٣ الى يوم طلوعه من حلب » اما تفاسير الالفاظ التركية فيها فقد اخذناها عن كتاب Barbier de Meynard الدرر العمانية في اللغة العثمانية — طبع في باريس ١٨٨٦ وهو قاموس تركي افرنسي راجع كل مادة بمادتها المرتبة طبقاً لترتيب الاحرف الهجائية .

---

١) لم نجد له ذكراً لا في نهر الذهب ولا في تاريخ السلطنة العثمانية لهامّر . ولعل مدة اقامته في حلب لم ترد على الاشهر شأن الولاة العثمانيين في ذلك العهد

١

بارة غرش[1]	مادية[2] الاولاد كلفة الحج[3] والبيوزدي[4]
١٠٠٠	الى الخزانة العامرة[5]
٢٧٥	الى الكاخية[6]
٥٠	الى المباشر[7]
٤٧½	الى باش جاويش[8] وخرج[9] الباب
٤٠	الى ويس اغا
٣٠	الى الصراف
١٠	الى دويدار
٤٥٠	الى الملا السابق[10]

١) وفي دفتر حجج ملكية وقف الطائفة المارونية جاء في سنة ١٧٨٠ ذكر حجة بيع دار في الصليبة بثلاثمئة غرش جديدة سلطانية فلا بد ان تكون الغروش السلطانية سعرها غير سعر هذه الغروش الفضية وقيمتها اربعون بارة الغرش . وكان سعره ٣١ سنتيماً ذهباً على التقريب (Encyclopédie de l'Islam II. p. 135)

٢) مادية لعله يريد بها المادة .

٣) كان مرور الحجاج في حلب يتطلب اعانات توزع على المكلفين .

٤) البيوردي او بيورلدي اسم كان يطلق سابقاً على الامر المطاع او الارادة السنية من جانب السلطان او الصدر الاعظم وقد اطلق بعد ذلك على البلاغات والتعليمات الصادرة من مدير دائرة الشرطة .

٥) الى خزنة او صندوق الباشا .

٦) الكاخية او الكخية او الكتخدا : من الفارسية ومعناها صاحب (خدا) البيت (كت) وهو النائب المفوض من قبل سيده في تدبير الامور .

٧) المباشر هو احد العمال في دوائر الحكومة - الحاكم .

٨) جاوش : الخادم في المحكمة . باش جاوش : كان سابقاً رئيس اورطة الانكشارية الخامسة .

٩) خرج : النفقة من المال للدخول .

١٠ : الملا : السيد

الى نايب وكاخية وخرج الباب	١٤٠
وايضاً خرج باب المحكمة العراني	٧٠ س
الى خزينة دار الباشا	٢٥٠
الى احمد افندي	١٥٠
	٣٠١٣
الى باش جوقه دار [١]	١٣٤
الى القاضي لاجل قليط [٢]	٣٧٤ *
الى كاخية القاضي	٣٧<
الى الحاج عبدالله والي ترجمان والمحضر	٣٢<
الى احمد افندي من يد نحـه	٣٠٠
قتالة القاضي مع الكاخية	٣١٢<
الى صراف الباشا	١٠٠
الى كيخيه	٣٧<
	٩٦٤٢ *

٢

مادية الزفراق مع دعوة المره	.. س
الى خزنة الباشا	٢٥٠٠
الى الكاخية	٣٥٠
ايضاً الى الكاخية ده يك [٣]	٢٥٠
خرج خزنة وخزينة دار	٢٧٥
الى قبجيلر كاهياسي [٤]	٥٠

١) باش جوقه دار : الاول بين خدمة السلطان وكان تحت امره اربعون خادماً . كان يمشي على يمين السلطان ويضع يده اليسرى على ظهر حصانه ويحمل بيده اليمنى كيساً من حرير فيه بابوج السلطان .

٢) قليط . جاء في الدرر : قليته وهي نوع من الطعام .

٣) ده يك ؟ قد يكون معناها من اجل الدية ؟

٤) قبجي مغلوط عن بكجي اي الحارس او البوّاب .

١٠٠	الى ديوان افندسي	
٥٠	الى مهر دار	صاحب الختم
٢٠	الى دويدار	صاحب الدواة
٥٠	الى ويس اغا	
٢٥	الى امين وترجمان	
١٥	الى عربي كاتب	
١٥	الى جوقة دار الكاخيه	
٤١٥	الى مطرجي[1] الباشا	
٢٥٠	الى والي افندي	
١٥٠	الى كاخيه اغاسي	
٢٥	الى خزينة دار اغاسي	
١٠٠	الى جوقة دار اغاسي	
٣٠	الى اولاد القاضي	
٢٧٨	الى باش نايب	
١٥٠	ثمن ساعات عدد ٢	
١٣٤	الى جوقة دار القاضي	
٣٠٠	الى احمد افندي من يد نخمه	
٥٥	الى (؟) من يد نخمه	
٥	الى يسقيه[2]	
٤٠	الى الحاج عبدالله والمحضر والترجمان	
٢٧٨	الى معلم سلطان ثمن جوخ وشاش	
٥٢٨٩		

١) مطرجي او مطهرجي : حامل المطرة او السقا . والمطهرة كانت قنينة من جلد ملأ ماء وتحمّل على الدابة في السفر ومنها المطرة اسم لوعاء للماء يحمله الجند في رقابهم .

٢) اليسقي او الياسقي : مأمور التنفيذ

٣

٠٠ س	مادية الراهب
٣٦٠٠	الى خزنة الباشا
٣٥٠	ده يك
١٥٠	الى ديوان افندسي
٢٥	الى سلام اغاسي
١٠٠	الى المباشر
٧٧‹	الى ويس اغا
١٥٣≤	خرج مفردات
٣٥٠	الى (؟)
٤٨٠٦ –	
٥٠٠	دعوة قسيس الذي مسكره على بكره
٥٠٠	دعوة البندوق
٥٨٠٦ –	

٤

٠٠ س	مادية الحكيم الذي مات في دكانه
٢٥٠٠	الى خزنة الباشا
٢٥٠	ده يك الى الكاخيه الديه
٢٨٨‹	ده يك الده يك [لم يكتفوا باول دفعه ؟]
١٣٩⁘	خرج خزنه
٥٠٠	الى الكاخيه
٤٠٠	الى القاضي والنايب الذي سافروا
٦٥ –	الى باش جاويش
٩٢‹	الى ويس اغا ظاهر ومخفي
١٠	الى اولاده

٢٠	الى امين والترجمان
٢٥	الى عربي كاتب ١٥ وديوان افندى ١٠
٥٣٤	ثمن جوخ لويس اغا
٥٠	الى خزينة دار الكاخيه
١١٤	الى لطاخ رخت فهى الكاخيه (؟)
٢٧٤	الى ديوان افندي
٢٥	الى سلام اغاسي
١٠	الى الهردار (؟)
١٢٨	الى عثمان اغا الباش
١٣٩٤	الى صراف الباشا
٥	الى تابع الصراف
١٠٠	ليلة الذي سافر الكاخية مع الالجي في يد الكاخيه
١٥	الى اسيير تابع الخزينة دار
٢٣٧ :	مصاريف متفرقة
٤٩٨٢	

٥

مادية قتالة البسارنه[1] عند التترلار

١٥٠	الى الكاخيه
٢٥	الى ويس اغا
٤٨٧	خدم تفنكجيه وعيادية جواويش زلطين وخمسه
٥٦٤٤٤	

٠٠	الغرش ٤٠ باره
٥	ثمن غرش
١٠	ربع غرش
١٥	

١) البساونة جماعة بقي ذكرهم في حلب بالكمك البساراني – التاترلر حي في حلب (راجع ذكره في كتاب نهر الذهب للغزي ٢، ص ٢٢٦

الغرش يقسم الى ٨ اقسام

الاول ٥

الثاني ١٠ ـ

الثالث ١٥ ـ

الرابع ٢٠ ‹

الخامس ٢٥ ‹. ‹:

السادس ٣٠ ≤

السابع ٣٥ ≤. ﺼ :.

الثامن ٤٠ ١ .١.

٥٦ في يد ويس اغا

١١٥ في اجارة الصراف اليهودي

٣٨ الى عثمان اغا ثمن عبايه

١٤٥ مصاريف في يد مناحي متفرقة

٣٥٤

٦

٠٠ س جرم مادية رجم المحكمة

١٠٠٠ الى خزنة الباشا

١٠٠٠ الى الكاخيه

١٠٠ ده بك

١٠٠ الى خزينة دار الباشا

١٣٠ الى ديوان افندسي

١٦٢≤ الى باش جاويش

٤٥ الى ويس اغا وامين ترجمان وعربي كاتب
٢٥ ٥ ١٥

٢٨ الى محمد زغير واوضه باشي

١٠٠ الى ويس اغا طالب من كل طايفه وكيل

١٨ الى باش جاويش ثمن بزه (؟)

١١٥ خدمة تفنكشي باشا

٢٠ عبايه الى ويس اغا

١٨ ثمن جوخ الى مطرجي وسلام اغاسي

٢٠ الى سلاح دار وتوابعه

٢١ الى ويس اغا على دفعتين

٥٥ الى ديوان افندسي

٩٤< في يد الكاخيه لما رجع من وداع الالچي

٢٢٥≤ مصاريف هل ماده وخدمها ·

٣١٥٣:

Y

٠٠ س ماديه لما جاب الاربع مطارين[1]

٤٠٠٠ الى خزنة الباشا

١٠٠٠ الى الكاخيه

٦٠٠ الى خزنة دار الباشا وخرج

١٥٠ قبجيلر كاهياسي

١٥٠ الى ديوان افندسي

٥٠ الى سلام اغاسي

١٠١≤ الى باش جاويش

١٠ الى جاويشيه

١٥٠ الى ويس اغا

٣٠ الى امين وترجمان

٢٥ الى عربي كاتبي

١٧٥ خدم جوقه دايرة الكاخيه

٣٠٠ الى خزينة دار الكاخيه

٤٠ الى محمد الزغير وخاله

١) تجد تفاصيل ذلك في دفتر اخوية التريتان الارمن في تاريخ ١١ كانون الاول سنة ١٧٥٧ وسننشره في المشرق ان شاء الله .

١٢٥٠	الى القاضي
٣٠٠	ايضاً خرجها
١٥٠	الى كاخية القاضي
٢٥	الى خزينة دار القاضي
٢٧٥	الى باش نايب
٠٠ س	دعوة بندوق الروم
٢٠٠٠	الى الخزنة
٧٠٠	الى الكاخيه
٥٠	الى ويس
٨٥٠	مصاريف
٣٦٠٠	
١١٥٠	دعوه ثاني بندوق
٢٥٠٠	من طايفة الروم لما قاموا يلموا دين الفرنجي
٧٢٥٠	

٨

٨٢٠٠	مادينين تبن وشاشات وبشاكيش معها
١٩٤٥٠	
٥٨٠٦	مجموعات
٣٨٢٨	مجموعات
٥٢٨٩	مجموعات
٢١٨٠٧	مجموعات
٥٥٠	
٥٣٧٣٠	

وقد تأتي بعض المجموعات في النصوص التي نشرناها مغلوطة باليسير وليس للغلط اهمية عظمى بالنسبة الى النتيجة وهي البرهان على ان حمل الغرامات كان ثقيلاً على الرعية الى ان تبلغ منها الروح التراقي فيضطر الكهنة الى بيع

آنية الكنيسة ليدفعوا بثمنها الاذى عنهم وعن رعاياهم .

ولك الحجة على ذلك فيما نسخناه من اضبارة المطران ارسانيوس شكري حكيم اروتين مطران الموارنة في حلب ١٧٦٢ الى ١٧٧٦ وهذا ما جاء فيها (الوثيقة ١٨):

بيع فضي الكنيسة

« بالنظر معنا في حال الطايفة التي عجزت وضعف حالها من كثرة دفع التكاليف العرفية والجرايم الثقيلة التي طرت عليها في هذه الايام الصعبة التي لم يرى مثلها قط فلاجل حفظ الكنيسة والطايفة من الغايلات المذكورة اعلاه وقد تحققت جدًا لدى الجميع وما عاد خلاص الا بيبع جانب من فضي الكنيسة جانب معين الموقوفة لها من المحسنين وبشورتنا نحن وبمعرفة الجميل قد باع من الفضي المذكور وزن ١١٥٤٠ درهم وهذه دفعها جرماً لاجل خلاص الكنيسة من الغايلة المذكورة وقد حررنا هذه الوثيقة برضانا
١٧٨٠ ١١ ايلول كهنة الطائفة بحلب »

وجاء بعدها الوثيقة ٣٥ من دون تاريخ: « وجهاء الطائفة يطلبون مساعدة المطران ارسانيوس شكري. غير خاف عن علم قدسكم ضيقة الهرب والخبا والحبس والضرب والتعطيل الحاصلين به نحن اولادكم اصغار طايفتكم هذا ما عدا تسكير الكنيسة وابطال الذبايح وخطايا الندم التي من شأنها ان تصدر من الضيق وعدم النظام .»

تلك كانت الاحوال في زمان كثرت مظالم حكامه واستبدادهم . واست اخشى ان يلومني لائم فيما اذا كشفت عن جراحات قديمة ضمدها الزمان لان في المقابلة بين ايامنا وايام حوشب وارتين مدعاة للعبرة المفيدة .

٣) التراجمة

كانت الضرائب والغرامات تثقل وطأتها على الاهالي على اختلاف طوائفهم فصار الناس يلتمسون السبيل الى التهرب منها كل فيما يوفق اليه من الوسائط ، وكان للمسلمين اسياد واشراف يوالونهم وهؤلاء كانوا يتمتعون بالاعفاء من كثير من الضرائب . وكان المسيحيين القناصل لمن وفق منهم الى الدخول في خدمتهم كترجمان او غير ذلك او من تمكن من اكتساب ودهم بسطوا حمايتهم عليه ووقوه اداء البلص والغرامات.

كان لكل قنصل ترجمان واحد في بادئ الامر واذ كان القنصل في الغالب لا يفقه لغة البلاد كان يضطر الاستعانة بترجمانه في تعاطي اشغاله مع الحكام ومع الاهالي . ولم يلبث عدد التراجمة ان زاد حتى صار لكل قنصل عدة رجال يخدمونه فيستفيد منهم جاهاً ويوسع بسعيهم دائرة اشغاله التجارية وكان القنصل في الوقت عينه ممثلاً لدولة اجنبية وتاجراً . وكان التراجمة يستفيدون من مكانتهم تحت حمايته فتأتيهم السلع من البلاد الاجنبية ولا يدفعون عنها نفقات المكوس شأن القناصل ولا يحاكمون في الدعاوي الا في محاكم القناصل ولا يكلفون اداء الضرائب كما يكلف غيرهم من مواطنيهم .

واذ كانت الغرامات كما رأيت سابقاً تفرض على الطوائف وكان الاغنياء فيها يؤدونها عن فقرائها كان انتماء بعض وجهاء الطوائف الى دولة من الدول الاجنبية في خدمة الدوائر القنصلية يحرم الطوائف من مساهمتهم في تأدية الاموال ويثقل عبئها على كاهل المكلفين بنسبة قلة عددهم ، ولنا في وثيقة نسخناها عن اضبارة المطران حوشب وصف لهذه الحالة[1].

طلب المطران الى اهل « الحماية » دفع ما يترتب عليهم من المال للطائفة وتأييد رؤساء المرسلين الاوروبيين لطلبه ولا يخفى ان لمصادقتهم على الامر اهميتها عند القناصل وهؤلاء بالغالب ينتسبون الى الطائفة اللاتينية فلا يسعهم الا ان يوافقوا المرسلين على الزامهم اهل « الحماية » والتراجمة بالقيام بواجبهم نحو طوائفهم . واليك الوثيقة المذكورة :

شهادة تاريخ ١٦ تشرين ١ سنة ١٧٥٨ ممضاة من رؤساء المرسلين بحلب على اجتماعهم عند المطران جبرائيل بخصوص اولاد الطائفة المنتمين الى الاجانب انهم ملتزمون بدفع الغرامة الموضوعة على الطائفة للحكومة .

« في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الاول ١٧٥٨ قد [اجتمع الآباء] المكرمين مرسلين بيعة الله المقدسة القاطنين يومئذ بمدينة حلب جميعهم بطلب حضرة المطران جبرائيل حوشب لاجل تدبير ونظام طايفته المارونية حيث ان الكثيرين منهم ملتجيين الى حمايات متنوعه وتاركين ما يجب عليهم من

١) حاشية رقم ١٠٣ من اضبارة المطران جبرائيل حوشب في كيفية آثار الطائفة المارونية بحلب .

المساعدة لقيام وثبات كنيستهم ومطرانهم وكهنتهم فبعد النظر والاطلاع على هذه الحوادث طبق رأي الجميع:

اولاً: بان يتوجه اثنان من الآباء المذكورين لحضرة قنصل فرنسا المكرم واثنان لحضرة قنصل البندقية الاكرم واثنان لحضرة الخواجا جرجس عايدة ويطلبوا منهم ان يلزموا كافة تراجمهم وحمايتهم وتوابعهم لان يحضروا في اليوم الثامن عشر من هـذا الشهر في دير حضرة الاباء المكرمين رهبان القدس حيث عقدت هذه الجمعية لكي ينبهوهم ويعرفوهم الواجب عليهم بل الالتزام الاضراري بقيـام كنيستهم ومطرانهم وكهنتهم ليس الاختياري فقط.

ثانياً: لكي يختار منهم بمعرفة حضرة المطران جبرائيل المشار اليه ثمانية انفار من كل صنف حماية يكونوا اصحاب (؟) واقرار (؟) ولهم وقوف في احوال الطائفة المذكورة بحسب الامكان لان يرتبوا عليهم وعلى بقيـة طايفتهم المارونية شيئاً معلوم في كل سنـة ويكونوا ملتزمين بدفع ما يترتب عليهم ويعطوه من غير تعلل ولا اهمال.

ثالثاً: ان انوجد بعض الناس مخالفين لهذا الاتفاق ولم يرتضوا بالذي ترتب عليهم ولذلك قاصصهم حضرة المطران جبرائيل المكرم قصاصاً كنائسياً ولو انه بالحرم اذا راه مناسباً لردعهم وردهم فلا يمكن ان احد من المرسلين المكرمين يتعارضه بذلك ولا يقبلوهم بنوع من الانواع الا بدون طاعتهم وخضوعهم لامر حضرة مطرانهم واثباتاً لذلك حرروا هـذه الوثيقة بخطوط اياديهم لاجل البيان في التاريخ المذكور.

التوقيع:

Raimondo di Matta di Terra S^{ta}.
Federico di H. Wenceslao Carmelitano.
H. Cuisset, Sup. Jésuite.
Eleuhère Capucin et leurs religieux.

ريموندو دي متّا من ارسالية الاراضي المقدّسة.
فيدريكو دي فنسيلاو الكرملي.
هـ. كويسة رئيس اليسوعيين.
ألوثير الكبوشي وسائر رهبانهم.

ويظهر ان طلب المطران وتهديده التراجمة بالقصاص والحرم الكنسي لم تكن ليبلغ النتيجة المرغوب فيها الى مدى بعيد وزى في اضبارة المطران ارسانيوس شكري خلف المطران حوشب تحت الرقم (٣٧) تحريرًا منه ومن كهنته (من دون تاريخ) «الى قنصل الفلمنك بخصوص التراجين وما يلحقهم من الغرامة على «الكنيسة» طالباً مساعدته بملاحقتهم واجبارهم على دفع حسابهم وما يلحقهم في التحرير ذاته. وفي (الرقم ٤٤) بتاريخ ٢٧ نيسان ١٧٦٤ يتفق المطران ارسانيوس مع انطون البيطار ترجمان الفلمنك ويسلمه الوكالة ليقبض من اولاد طايفته التراجين والاجانب ما يلحقهم من الغرامة بجانب الطائفة.» ويذكرها تحت الرقم (٤٥) فهي عشرة آلاف غرش. وهذا فيما يخص التراجمة الموارنة.

وفي سنة ١٢٠٨ هـ ١٧٩٣ يتدخل سليمان فيضي باشا بامر تخفيض عدد تراجمة قناصل الدول الاجنبية اجمالًا فيكتب الى الباب العالي بان عدد تراجمة القناصل في حلب بلغ نحو الف وخمسمائة وذلك لان الدولة اذنت لكل سفير في استانبول ولكل قنصل خارجاً عنها بترجمان واحد اعفته من تادية الاموال الاميرية.

وما لبث ان كثر طلب الاستخدام في دور القناصل وتكاثر عدد التراجمة فكنت ترى في ازقة حلب رجالًا كثيرين على رؤوسهم قلانس السمور وهي علامة التراجمة وقد بلغ عددهم على ما يقال في تلك المدينة الفاً وخمسة ترجمان واكثرهم توصلوا الى مهنتهم بالحيلة. وفي ذات يوم عينت الدولة مفتشاً بحث عن حالهم فدعاهم اليه ليتأكد من هويتهم وحقوقهم فلم يجد بينهم الا ستة حقيقين بمنصبهم. فثبتهم فيه وحكم على الباقين بتأدية الاموال الاميرية المتأخرة عليهم. فدفعوا للكمركجي والتحصيل دار خمسة آلاف ذهب وللوالي مثلها...»[1]

ومن المعروف في ايامنا ان التراجمة اصبحوا كسائر السوريين متساوين بالحقوق والواجبات بعد الغاء الامتيازات الاجنبية.

---

١) راجع كامل الغزي: نهر الذهب ٣، ص ٣١١

مكتبة المشرق

ديوان ابن الساعاتي

عني بتحقيقه ونشره انيس المقدسي
استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

الجزء الثاني ٤٣٨ صفحة

المطبعة الاميركانية. بيروت . آب سنة ١٩٣٩

نقد واستدراك بقلم حبيب زيات

تقدم لنا الكلام على الجزء الاول من هذا الديوان في « المشرق » (٣٧ [١٩٣٩] ٤٦٨ — ٤٧٨) و« الخزانة الشرقية » (٣ : ١٧٠ — ١٨٠) وقد انتهى الينا اخيرًا الجزء الثاني وهو الختام . فاقبلنا على تصفحه والنظر فيه ، فألفيناه حافلًا بالحواشي والشروح . ومرّ بنا في اثناء المطالعة مواضع كثيرة تستدعي البحث والاستدراك ، فاحببنا التنبيه على اهمّ ما فيها وفاء بحقوق العلم والنقد ، وفي الصفحة الاخيرة فهرس لاغلاط الطبع يتضمن اربعة منها فقط ، قال : « وهناك هفوات مطبعية لا تخفى على القارئ » وكان الاولى سردها جميعها لخفاء بعضها ، وقد عددنا منها ما يبلغ ١٥ غلطًا من اغلاط الضبط والشكل . وعثرنا على اوهام اخرى نرى من الفائدة الاشارة اليها . وقد قسمنا الكلام على هذا الجزء اجمالًا الى عدة اقسام نذكرها على التوالي:

اغلاط الطبع والسهو

ص.	س.	الخطأ	الصواب
٧	١٦	كفٌ بلا زند	كفَ
٧٤	١٠	وناقد ابريز المقال وزينهُ	وزيفِهِ
٨٠	٣	فانخا انساخا حتى اماها	انخا كما في الحاشية ١
١٠١	٤	ولستُ من معشر الإباء ولا الفضل اذا ما نصرتَ من خذلك	ولستَ
١١٧	١٩	فيه ابطاؤه والزوم	ابطاؤه بالياء
١٣١	١٧	زيارة ما نُغِصت بغب	زيارة
١٨١	٩	لقد سرتُ فيها سيرة عمرية	سرتَ لقوله قبلًا تداركتَ مصرًا
١٨٥	٢	يوم الزّفاف	الزِفاف
٢٦٦	٦	تلقى الملامة فيكَ بالًا باليًا	فيك لقوله في البيت السابق : كم قد رَكِبت اليّ
٢٧٠	١٦	فالتناء بكفه	فالقناة
٢٧٠	١٩	كم جئتُ مادحه فاحسن صنعه رفدي ..	صنعُه بالضم فاعل احسن ورفدي مفعول به
٢٨١	١٦	جنة الحمد	جنة الخلد
٢٨٣	١٧	العبد (حاشية ٣)	العيد بالياء لقوله في المتن وقد صحّف العيد الانام
٢٩١	٧	والمعالي حلل	خلل بالخاء كما في الحاشية
٣٠٠	١١	التاني – وفي فهرس الاغلاط التاني – التأى	الثأى بالثاء
٣٥١	٩	وايٍّ ظل	وايُّ
٣٥٨	١٥	وقاسوا بك الاشباهُ	الاشباهَ

اغلاط الضبط والشكل

ص.	س.	الخطأ	الصواب
٧٦	٣	نائية الطِرح	الطَرْح بالفتح تخفيف الطَرَح اي المكان البعيد أُسكن للضرورة .
٧٦	٢٢	توليت باهل للتاج وللقحِ	وللَقح بتشديد اللام بمنى اللقاح والنتاج .
٧٧	٣	والفاظ شعر ما تنحلتَ ام درّ	تنحّل ادّعى ونسب لنفسه وهو ضد المراد والصواب تنخّلت بالخاء اي

ص	س	حاشية	الخطأ	الصواب
				اخترت .
٩٣			أظنّ طليقاً والفؤاد مُدَلَّه وقيد لما حمَّلتنيهِ من الثقل	الوقيد هو ما توقد به النار والصواب وقيذ بالذال المنقوطة وهو الشديد المرض المشرف على الموت .
١١٢	١	١	ونكاد تعرف في وجوه بنائها تيه الجمال وعزّة المتذلِّل	وفي الحاشية « كذا الاصل والضمير يرجع الى القصيدة » وهو وهم غريب لا ندري كيف يصح معه تطبيق هذا البيت على القصيدة ، وانما يرجع الضمير الى الدار التي اشار اليها قبلاً بقوله : ولقد ابان عن العُلى بنيّة وفي عنوان القصيدة انها قيلت في وصف دار الامير نصير الدين جرام بظاهر المحلة . والمتذلل غلط واضح لانه لا عزّة لمن يتذلل ، والصواب المتدلل من الدلال .
١٦٩	١١		اي كأسٍ من الجمال يصدّ الـ كأس عني ويمنع الظّلم ظُلما	والصواب كاسٍ فاعل من كسا يكسو اي متلبس بالجمال .
١٧٧	١٤		فاستجليها عذراء ايسر خُطبها ما عنّ خِطب ان تصدّ وتصدفا	وليس في اللغة خُطب بضم الخاء ، والصواب خَطبها بالفتح اي ايسر شأنها وما يلقاه الخاطب لها ان تصدّ وتعرض عنه .
١٨٥	٣	٣	والليالي شديدة الآلحاف	بدلاً من الإلحاف مصدر الحف اي الحّ .
٢٠١	٤		شجاع لا يُبَلّ له طعين	والصواب لا يُبِلّ او يَبِلّ اي لا يبرأ .
٢٠٨	٩		كم احتقبوا من مدحة تنهج الحِقبا	والصواب الحُقبا بضم الحاء بمعنى الدهر والسنين.
٢٢٨	٦		آليت أُلفي خاضماً لمدَّحٍ	الاصل أُلفى بالمجهول اي حلفت ان لا أُوجد خاضماً لمدَّح غيرك .
٢٧٧	١		نشوان من خمر الشباب فِداؤه ما غار من بان العقيق وغاره	والاصل لا شك فَداؤه بفتح الفاء والمعنى ظاهر .
٢٨٠	٦		فكالهائم العطشان خُلّي عن ورد	بضم الخاء المنقوطة ، والصواب حُلِيء بالحاء المهملة والهمزة بآخره اي مُنع وطُرد عن الشرب .

ص	س	حاشية	الخطأ	الصواب
٢٨٥	١٧		يفرّ الاعادي لينه دون سطوه كذا الشهد يخفي طعمَهُ سَوْرةُ السمِّ	بنصب طعمه على المفعولية وضبط سَورةُ بفتح السين وضم التاء على انها فاعل يخفي . ومعنى السورة بالفتح الحدّة ، وهو خلاف مراد الشاعر كما يتبين لاول وهلة . يقول ان ما يظهره الممدوح من اللين والرفق يغرّ اعاديه فيخفى عليهم ما اتصف به من البأس والسطوة كما يُخفي طعمُ الشهد وحلاوتهُ ما كمن فيه من السمّ الزعاف ، ومن ثم يجب ان يُضبط المجز « كذا الشهد يُخفي طعمُهُ سُورةَ السمّ » بضم طعمه على انه فاعل يخفي ونصب سُورة على انها مفعول به وهي البقية والفضلة .
٢٨٦	١٩		ذوو الحسب الوضّاح والانُف الشُمّ	بدلًا من الآنف بالمدّ والضم جمع أنف .
٣٠١	٠	٢	ألومًا بعدما قدمت حقود وماتت في القلوب لي الدخول	في الحاشية : « الدخول جمع دَخَل وهو ما يداخل القلب من فساد وغيره » . وهذا الجمع لم يَرِد قول به لان فَعَل بفتحتين لا يجمع على فعول ، والصواب ذحول بالذال المعجمة بمعنى الثأر والعداوة .
٣٠٩	٣		اذا اثعوعم الوادي فلا سال مَذنب	بفتح ميم مذنب . والصحة مِذنب بالكسر وهو مسيل الماء والجدول من الروضة .
٣٢٩	١١		عنَفَ الشوق بالمحبين	والمنقول عَنُف بضم النون .
٣٣٠	١٠		والمولّى من الشباب مولّى	والاصل ، دون ريب ، والموّلي اي ما فات .
٣٣٣	١٠		اي نظم وهبتَهُ لذة الـ غمض فوافى من لذة الغمض احلى	والصواب ضم التاء من وهبته لان الساهر على النظم هو الشاعر لا الممدوح ويؤيد ذلك قوله في البيت السابق « لا عدت ساحتيك غادات فكرى » .
٣٣٩	١٩		ويُصبيك جوهره والفَرَنْدُ	والفرِند بكسر الفاء والراء كما

ص .	س .	حاشية	الخطأ	الصواب
				في معجمات اللغة .
٢٤١	٣		ونظّمتَها لجبين الملا	بتاء المخاطَب ؛ والصواب ضمّها لانها تاء المتكلم لقوله في البيت السابق « زففتُ اليك بنات النهى » .
٢٤٣	١٨		وكانت سقى جيشاً كؤوس حمامه دهاقاً واطرافَ العوالي مجاديح	بنصب اطراف على انها مفعول ثانٍ لسقى وهو غلط ظاهر . وقد اخلّ بتفسير مجاديح على جهل غالب القراء بها وكثيراً ما يتفق له شرح الجلي الواضح من الفاظ الديوان وإغفال الحوشي الغامض ولو راجع هذه المرة كتب اللغة لوقف على قولها « المجاديح انواء السماء » وتحقق مراد الشاعر ان اطراف الرماح هي الانواء التي تسقي الاعداء كؤوس الحمام فهي مرفوعة على انها مبتدأ وخبره مجاديح .
٢٤٤	١	١	فتى عزمه كفُّ الكتيبة خاطباً	وفي الحاشية : « لعلها كفء » وهو تردّد غريب مع جلاء المعنى ووضوحه بادنى تأمّل ، اي ان عزم الممدوح هو كفءٌ لخطبة الكتيبة وقيادتها .
٢٤٥	١		وكم لي من عذراء اجزلتُ مهرها فلا انا مغبون ولا انت مفضوح	ولا حاجة الى التنبيه على ان الذي يجزل مهر القصيدة العذراء هو عادة الممدوح ، فكان يجب ان تروى لفظة اجزلتَ بتاء المخاطب المفتوحة لا بتاء المتكلم المضمومة ، وقد حار الشارح غير مرة بين التائين .
٢٤٥	٥		فمثلك مغدور السماح بحبها وغيري معذول الطاعة منصوح	ولا معنى هنا لنعت « مغدور » والصواب « معذور » بالعين المهملة والذال المنقوطة . ألا يرى الاستاذ حرص الشاعر على مقابلة العذر بالعذل وان اللفظ عنده غالباً هو الذي يقود المعنى ؟
٢٤٧	١٨		وبأبي صبح وغى نجوم رماحه ما ضوّأت وبروقها لم تُخطَف	ببناء تُخطف للمجهول والبرق يكون عادة هو الخاطف ، ألا يذكر

ص	س	حاشية	الخطأ	الصواب
				قول سورة البقرة : «يكاد البرق يخطف ابصارهم » فالصواب لم تخطفِ بالبناء للمعلوم .
٢٥٣	٨		عزم يقصِّر عنه الختل والحِيلُ	والختل هو الخداع وليس هو مراد الشاعر ، والاصل لا شك الحَيل بالحاء والياء بمعنى القوة .
٢٦٧	٨–٩	٥	ومن لي لو استطيع الشفاء بما حزتُ من ثروة وصفد . واني كنتُ وعاش الفقيدُ فخُلِّد لو ان حياً خلد	والبيتان في رثاء ابنه وفي الحاشية : « ولعله يقصد واني كنت فداء اي مت » . ولو كان هذا قصده حقيقة لقال « واني متُّ » وهي اوضح ومحلها في الوزن واحد . وانما تمنى لو كان هو الفقيد وعاش ابنه مكانه فيجب ضبط الصدر « واني كنتُ – وعاش الفقيدَ » بنصب الفقيد على انه خبر كنت ، وعاش جملة معترضة .
٢٧١	١٠	٥	وبتُّ جنيب الحادثات يَقُدْنَني وقد كنت قطّاع الحبائل والشُّكُل	وفي الحاشية : « الشُّكل جمع شكل » ولا ندري في اي كتاب ورد الشكل بمعنى الشكال . وقد اتفق للشارح غير مرة اثبات ما ليس بثابت في دواوين اللغة من المفردات والجموع وتقدير ما لم ينصّ عليه احد من العلماء من معاني الالفاظ . وانما الشُّكل في الحقيقة هو تخفيف الشُّكُل بضمتين جمع شكال لما تربط به قوائم الدابة على الاطلاق لا قوائم الناقة وحدها كما في الحاشية .
٢٨٣	٩	٥	والمَمْ جا فيها من اهلها لِمَم وانت خوذة اهل السهل والجبل	كذا بضبط لِمم بكسر اوله . وهذا الحرف هو جمع لِمّة للشعر المجاوز شحمة الاذن . ومراد الشاعر لَمَم بفتحتين وهو الجنون الخفيف وفسر الخوذة بالتي يُتّقى بها الرأس من الهلاك وهي لفظة فارسية بمعنى المغفر

ص.	س.	حاشية	الخطأ	الصواب
				كان في موضعها في الاصل « عوزة » بالزاي فأثر عليها الشارح حدساً وتخميناً خوذة لانه لم يجدها بهذا الرسم في كتب اللغة ، فكيف لم يتنبه الى انها هي « العوذة » بالذال اي الرقية التي يُعوَّذ بها المجنون والمصروع ؟

تحريفات الرواة والنساخ

ص.	س.	حاشية	الخطأ	الصواب
٧	١٠	٦	فالدوح يرقص والبروق بجوّها مثل الصوارم في الزفاف تشام	وفي الحاشية : « يظهر انه كان من عوائدهم ان تُشهر السيوف في موكب الزفاف » وهو وهم جرّ اليه التحريف ، والاصل « في الرقاب تُشام » .
٤١	١٧	٨	وثنى حسودك بالدموع مغسّلا قبل الممات وفي الثياب مكفناً	وفي الحاشية : « الثقاب (كذا) الهلاك » . واللفظة محرفة والاصل « وفي الثباب » بالثاء والباء .
٦٢	٦	٢	غيث جدًا فلا وزى بدر دجى فلا افل	قال : « لعله يريد بالفعل وزى تقبض بمعنى انكمش وتراجع » قلنا وزى في اللغة اجتمع فيكون من ثمَّ قد دعا عليه بعدم الاجتماع والارجح انَّ اللفظة محرفة عن « ونى » بمعنى فتر وضعف يدعو لغيث جوده باتصال التسكاب وعدم الفتور والضعف .
١١٤	١٣	٥	نثر الحام فيك او نظم الـ حمدَ فخَلْ في نظيمها والنثير	والبيت في وصف السيوف القواضب . قال « كذا الاصل ولعله يستعمل خال بمعنى اختال » فيكون من ثم المعنى : « تكبّر وتبختر بمثل هذه الافعال من سيوفك القواضب ، ومثل هذا القول والمعنى لا يجيء من ابن الساعاتي وهو قد وصف نفسه بانه « ملك المعاني رقّة وتلطفاً » (ص ١٧٧) ولا نشك ان هنالك تحريفاً من النساخ

ص	س	حاشية	الخطأ	الصواب
				وان الاصل «تُقَلْ» اي قل ما تشاء في نظم السيوف ونثرها .
١٧٦	٢	٢	ذي السمي تلقاه مسيحاً للملى	قال : « كذا الاصل ولعله يعني انه يحيي الملى كما يحيي المسيح الموتى » قلنا مثل هذا التشبيه بعيد جدًّا عن سجية ابن الساعاتي ، ولا ريب ان الاصل «مشيحاً» اسم فاعل من اشاح اي جدّ واجتهد .
٢٢٥	١٠		مهلًا عذولي بمسلوب العزاء له في كل يوم بمضوم الحشا سَجَن	وليس في اللغة سَجَن . وانما هي تحريف شَجَن وهو الهمّ والحزن .
٢٨٢	٢٤	١٤	هو الغيث ما احببتَ سَلهُ تفز بهِ وان كنت موموق الغنى سائغ الوردِ	وفي الاصل « بروق » ظن انه تحريف موموق . والصحيح « مرموق الغنى » اي ظاهر النعمة .
٢٨٥	١٥	٧	هو الجَرَب المرهوب ان حارب المدى بآرائه وهو السلامة في السلم	قال في الحاشية : « لاحظ هنا تكلفه المستبيح تشبيه الممدوح بالجرب لرهبته » . قلنا : سبحان ما حكم الاستاذ هذا الحكم الجائر على ابن الساعاتي ، وهو ما يشف طبعاً عن سوء اعتقاده في ادبه وذوقه وهل رأى قط شاعرًا او متشاعرًا تصدّى لمقابلة ممدوحه بمثل هذا التشبيه السمج الشنيع؟ فكيف لم يخامره اقل شك في صحة اللفظة وامكان تحريفها وهو قد اعتاد اذا مرّ به حرف مبهم او معنى غامض ان يكثر من التخريج والتأويل ويردد «لعلّ ولعلّه» حتى في غير مواضع التعليل فكيف قضى هذه المرة قضاء مبرمًا وأنى ولع صاحب الديوان بانواع البديع وهوسه الاخرق بتطلب الجناس والطباق والمقابلة في كل شطر من ابياته كلما استطاع اليها سبيلًا ؟ وما كدنا نحن نلقي نظرة على المجز الوارد فيه لفظ السلامة حتى

الصواب	الخطأ	ص. س. حاشية
رجح لدينا انه اراد مقابلتها بلفظ سابق في الصدر يكون بمعنى الهلاك ، وهو لفظ الحَرَب بالحاء المهملة الذي تمثل للاستاذ في جلد الجرب .		
ولا يظهر على هذه الرواية فاعل « يزيدا » . والصحيح « لن تريدا » اي الصبابة .	ثوّر الوجدَ نحو ثورا وقلْت في يزيد صبابة ان يزيدا	٢٩٥ ١٧
قال : لعله يريد باقاحه جعله يفوح « قلنا لم يرد في اللغة فعل اقاح ولا نظن ان الشاعر اراد استعماله بهذه الصيغة والارجح ان الاصل « اباحه » وهو اقرب واشبه بلفظة العرض .	وثناء افاحهُ عرْضَ المـ ـال وعرْض يُزري على المندليّ	٣٠٤ ١١ ٤
وفي الحاشية « كذا البيت » . ولا ريب ان الاصل «لك» بدلًا من «ليس» اي لك صدق الفعلين وحلو القولين .	ليس صدق الفعلين سرًّا وجهرًا لك حلو القولين جدًّا وهزلا	٣٩٧ ٩ ٦
«ينظم سَبَج الدجى » والسَّبَج الخرز الاسود شبه به ساعات الليل والتعاويذ لا تخلو من الخرز .	تُنظّم تعويذًا لها سُبَحُ الدجى	٤٠٥ ٧

ومما يدخل في هذا الباب ويُستدرك ايضاً على رواية الديوان اثبات البيت الآتي في القصيدة « خليليَّ من عليا دمشق سُقيتما » وهو :

وما كل يوم لي بارضك حاجة   وما كل يوم لي اليك رسول (ص ٣٧ س ١٣)

وهو ليس لابن الساعاتي استشهد به قديماً بديع الزمان الهمذاني في احدى رسائله (طبعة الجوائب ص ١٣) وهو من قصيدة ليزيد بن المنتشر المعروف بابن الطثرية ساقها ابو تمام في حماسته (٣ : ١٦١ — ١٦٣)

وفي القصيدة « باحت بنجد وهوى غزلانها » (ص ١٣٣) ثلاثة ابيات رويت كما يأتي :

بكى الغمام فشدا قمريّها   فرقصت زهوًا قدود باناها
من كل لدن مائس في نوره   كالصعدة السمراء في سناناها
مسرح اخواني ونفسي حرّة   مذ خلقت تصبو الى اخوانها

ولا يتبيّن كيف يكون بكاء الغمام وشدو القمري وميسان قدود البان « مسرح اخوانه » ولا شك ان هنالك نقصاً في الرواية . وقد راجعنا هذه القصيدة على ما نقل منها في « عيون التواريخ » لابن شاكر الكتبي فاذا هنالك بيت ناقص يجيء بعد الثاني وهو :

واحزنَ نفسي لفراق وطن من قبل كم اذهب من احزانها

وبه يتضح معنى « مسرح الاخوان » وهو الوطن .

وينتظم في هذا السلك ايضاً إغفال عدة ابيات وردت متفرقة في كتب شتى منسوبة لابن الساعاتي وخلا منها الديوان المطبوع منها اربعة نقلها المقريزي في « الخطط » ، وذكر ان بهاء الدين ابا الحسن علي بن الساعاتي قالها يوم في كسر الخليج ، وهي :

ان يوم الخليج يوم من الحسن بديع المرئيّ والمسموع
كم لديه من ليث غاب صؤول ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السدّ عزّة قبل ان تمسكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك فحاكى كسر قلب يتلوه فيض دموع

(الخطط ، طبعة النيل ، ٣ : ٢٢٤–٢٢٥)

وروى النويري في « نهاية الارب » خمسة ابيات في الخمر نسبها لابن الساعاتي ولا ذكر لها في احد الجزئين المطبوعين وهي :

وليلة بات بدر التمّ ساقينا يدير في فَلَكٍ من شربها شُهُبا
بكر اذا قُرعت بالماء كان بنا جدّاً وان كان في كاساتها لعبا
حمراء من خجل حتى اذا مُزجت لم تدر ما خجلاً تحمرّ ام غضبا
تريد بالبارد السلسال جذوتها وما سمعت بماء مُحدثٍ لهبا
تكسو الندمَ اذا ما ذاقها وضحاً حتى كأن شعاع الشمس قد شربا (٤ : ١٢٦)

وفي « الانتصار لواسطة عقد الامصار » لابن دقماق : قال علي بن رستم المعروف بابن الساعاتي :

انظر الى الروضة الغنّاء والنيل واسمع بدائع تشبيهي وتمثيلي
وانظر الى البحر مجموعاً ومفترقاً هناك اشبه شيء بالسراويل
والريح تطويه احياناً وبنشره نسيها بين تفريك وتمديل

وقال:

في روضة المقياس صوفية م بغية الخاطر والمشتهى
لهم على البحر ايادٍ علت وشيخهم ذاك له المنتهى (ق:١١٦)

وهذه الابيات الخمسة ليست في الديوان المطبوع.

ولابن حجة في كتابه «تأهيل الغريب» المطبوع في ذيل «ثمرات الاوراق» ابيات في الغزل المخمس اورد في جملتها لابن الساعاتي قوله:

جوى قوام الرمح وهو مهفهف والسيف في وجناته توريد
فكأنما سمر الرماح معاطف والهام فوق صدورهن نهود (ص٢٢٨)

قال ويعجبني قول ابن الساعاتي:

من معشر ويجل قدر علائه عن ان يقال لمثله من معشر
بيض الوجوه كأن زرق رماحهم مرّ يحل سواد قلب العسكر (ص٢٧٠)

وهي مما يجب ان تضاف الى ملحق الديوان.

وحكى الصفدي في كتابه «تحفة ذوي الالباب» انه لما توفي صلاح الدين الايوبي رثاه ابن الساعاتي بقصيدة طنانة كتبها لابنه العزيز اولها:

لئن كان ليل الحزن عمّت غياهبه فقد ناب عن بدر التمام كواكبه

ومنها:

هوى جبل الدين الحنيف وزعزعت بريح المنايا العاصفات مناكبه
واغمد سيف الله من كل مارق وسيم وكانت محرمات قواضبه
وما ابتسم البرق الساوي بعده ولكنه حلّت عليه ذوائبه
وما اهتز عطف الدهر الا كآبة غداة نوى عنه اخوه وصاحبه

ومنها:

ولم يك فينا يوسف غير يوسف لكف زمان موبقات مشاغبه
عجبت له لم تغنه سطواته ولم تغنه اراؤه وتجاربه
ويتناله المقدار لا هو دافع بوادره عنه ولا ذاك هائبه
(خزانة باريس رقم ٥٨٢٧ ص١٤٦)

وليس في الديوان اقل اشارة الى هذه المرثية.

المواضع التي اختلفت رواياتها وعدل عن الصحيح منها

تقدم لنا في نقد الجزء الاول من الديوان ان الاستاذ المقدسي كان، اذا مرّت به روايات مختلفة في النسخ التي بين يديه، يقع اختياره منها احياناً على الضعيف المرجوح، ويطرح الصحيح او الراجح . وقد تكرر منه نظائر هذه الاوهام في بضعة ابيات من هذا الجزء. نذكر منها ما يأتي:

ص ٦٣ س ٦ شكرتُ من اخلاقهِ فصدَّ عني واعتزل

ومن البديهي ان الصدود لا يكون بعد الشكر . وورد في نسختين في مكان شكرت «شكوت» من الشكوى والتظلم وهو ما اراده الشاعر على شرط ان يُصحح ايضاً لفظة «اخلاقه» جمع خلق بلفظ «إخلافه» مصدر اخلف اي شكوت من قلة وفائه بالوعد.

٢٢٩ - ١٤ تمثلها الافكار وهي بعيدة لقد غرَّ الا بالقلوب لمامها

والبيت في وصف «مهفهفة الاعطاف وَسنى جفونها» فكيف تكون زيارتها غروراً للقلوب ؟ فالرواية الصحيحة هي ما جاء في النسختين الاخريين «لقد عزَّ» اي ندر وقلَّ فمن الغرور المعدول عنها الى «غرّ»

٢٤٣ - ٦ هو المُنقر المغني فعادات جوده تزين وغادات الغوادي مفاضح

وقد اشكل علينا معنى «غادات الغوادي» والغادية في اللغة هي السحابة تنشأ غدوة فكيف تضاف اليها المرأة الناعمة ؟ وفي الاصل «عادات الغواني» وهو ما يترجح اثباته مع خفاء الرابط بين الشطرين ولا يمتنع ان تكون الرواية الاصلية «عادات الغوادي» يريد ان جوده اذا امطر كان وقعه جمالًا في حين ان مطر الغوادي يكون احياناً وبالًا وليس في المعنيين على كل حال كبير طائل لحرص الشاعر غالباً على ترويق اللفظ وتزيينه ولو اخلَّ بالمعنى.

٢٤٨ - ٦ يا ايها الملك الذي ولَيتهُ قلبي ولايةَ حاكمٍ متصرف
وجرى سواك من الملوك بلومه فحويت عن سبق مكان المنصف

ولا محل هنا للوم في سياق زعم من الملوك للاستيلاء على قلبه وادراكه بالاحسان والانصاف وفي الاصل «يرومه» اي يطلبه وهو المعنى الصحيح الظاهر بادنى رويّة ومن الغرابة العدول عنه .

اوهام التأويل والتفسير

في هذا الجزء الثاني، كما في الاول، شرح ضافٍ يتناول تفسير الكلمات المفردة ومعاني بعض العبارات والابيات، على غير افتقارها احياناً الى ايضاح وجلاء لقربها من كل فهم. وربما تكرر تفسير اللفظة الواحدة عدة مرار لغير داع. وكان الاولى ترتيب الالفاظ الغامضة في معجم خاص يُلحق بالديوان يرجع اليها القارئ عند الضرورة، اجتناباً لكل تطويل وإملال. وكأنّ الصناعة غلبت على الشارح، وهو استاذ الادب في الجامعة — ولكل امرئ من دهره ما تعوّدا — فظنّ ان القراء كالطلبة يحتاجون الى شرح غالب الالفاظ والتبسّط في التنبيه على المعاني، فأرسل نفسه على سجيّتها واكثر من التعليق والتحشية لغير حاجة. وربما اتفق له الاكتفاء بما يحضره من الجواب والمقاربة في توجيه الكلمة وتلخيص المراد بغير تكلف الرجوع الى امّهات اللغة والاهتداء بادلّة القرائن، وفي هذه الطريقة ما لا يخفى من التسامح وقلة الاحتفال بالعلم، فضلاً عن استغباء القارئ والشك في فهمه وذكائه. فلا غرو اذا استرعت النظر واستدعت النقد والجدل، وقد قيل: من ألّف فقد استهدف. ولو شئنا تتبّع المواضع التي قصّر فيها الشرح او ضلّ، لامتدّ بنا جدًا نفس الكلام واشتدّ سأم القارئ، فلا بد من الاجتزاء بما لا يخلو الإلماع اليه والتمثيل به من الفائدة.

(ص ١٨ س ٦ ح ٤)　. كَفَلٌ يميل اليه ذو الكِفْلِ

وفي الحاشية «الكفل الضعف»، كذا دون ضبط ولا تعيين. وقد يتوهّم القارئ ان الضعف ضدّ القوّة. وهومقتطع بغاية العجلة من قول المعجم: الكِفْل الضِعف من الاجر والاثم اي مثل مقداره. فايّ معنى ترى يُستخرج من هذا التفسير؟ وقد فاته ان ذا الكفل هو المشار اليه في سورة «الانبياء» على اختلاف في تعيينه هل هو الياس ام يوشع ام زكريا. انما ذكره ابن الساعاتي حبًا بالجناس بين الكَفَل والكِفل وهو اكثر ما يحوم في شعره على تطلّب مثل هذه الشعوذة اللفظية، ومراده ان النبي نفسه لو عاين هذا الردف لم يتمالك ان يهيم به

٢٦ — ١١ — ٨　　فاذا احتَبَتْ خطباؤها في محفلِ

قال: « احتبى جلس القرفصاء ويقصد هنا تراجعت او قعدت عن الكلام. » ولم ينقل احد ان احتبى هو مرادف قرفص. والاحتباء عندهم ان يشتمل الرجل بثوبه او يجمع بين ظهره وساقه بعمامة ونحوها، وأكثر ما يفعله الخطباء والرؤساء في الاندية اذا ارادوا الكلام او الجلوس للناس. وبمثله مدح ابن الساعاتي القاضي الفاضل وزير صلاح الدين حيث قال:

اذا ما الاجلّ السيد الفاضل احتبى ليوم حباء فالقَ ثهلان والسحبا (ص ٢٠٨)

فمن الغريب جدًّا بعد ذلك ان يفسّر الاحتباء – وهو فعل الخطباء – بتراجعهم وقعودهم عن الكلام اي بعكس المعنى تمامًا. ومن هذين المثالين المتقدمين تتبين العجلة التي تُخطّ بها الشرح احيانًا قبل ان تنضجه نار الروية والتأمل.

٣٢–١٧–٧) ثابت الآساس عادي البنا

قال في الحاشية: « لعله نسبته الى عادياء باني الابلق الفرد»، واعاد هذه النسبة في تعليقه على بيتين آخرين وردت فيهما هذه الصفة « عادي البناء » وهما ص ٤٦ س ٢٠ و ص ١٤٠ س ٣، ولا ندري كيف صحّ عنده في القياس بناء «عادي» في النسبة الى عادياء ولا افضى الينا بسرّ اختيار هذا الاسم للدلالة على القِدَم ومرّ به بعد ذلك البيت القائل:

ذو المجد الاجمّ والسنا العا ديّ الاقدم والمحل التيمي الارفع (ص ٩٢ س ٤)

فعاد الى رشده وقال: « العادي نسبة الى عاد » وسبق له مثل هذا التعريف بعد تردّد وشكّ فيه في شرح بيت متقدم:

لاذوا بعاديّ السيادة لا كمُداتهِ نبتوا مع البقل (ص ١٩ س ١٥)

فقال: « لعله لاذوا بذي سيادة قديمة عادية نسبة الى عاد ». فكيف لم يذكر هذين القولين في تعليقه على الابيات الثلاثة المذكورة آنفًا ولم يبادر الى تصحيح غلطه فيها؟ وفي حواشي الديوان امثال ونظائر لهذا التناقض العجيب.

٦٩–٣،٤–٢ وبكاء الراووق اذ قهقه الإ بريق من حسن نغمة الاوتار
ساجد للصليب منه وما يعرف دين الصليب والزنار

قال: « لعله يقصد بالصليب هنا الودك او ما يتحلب من الابريق فيكون معنى البيت: ساجد لخمره وليس من اهل الصليب والزنار اي المسيحيين» كذا بالحرف الواحد. واعجب ما فيه تفسيره الصليب بالودك اي دسم الشحم واللحم، وافتراضه سجود الابريق لما يتحلب منه، فليفهم من استطاع او شاء. وليته سكت تمامًا عن مثل هذا التأويل السخيف، وصان قلمه عن خطّ هذا التخليط الذي هو ادعى الى البكاء والقهقهة. وانما الصليب هو رسم النصرانية المعروف وقد نبّهنا في كتابنا « الصليب في الاسلام » على عادة خمّاري النصارى بخط

رسمه بالطين الاحمر على البواطي واواني الخمر والشراب (ص ١٠ و٦٥) وهي العادة التي كانت لم تزل متبّعة بدمشق في اوائل هذا القرن بالتصليب على آنية ماء الورد المشهورة عندهم بالألفيّة. والمراد بقهقهة الابريق صوت اندفاق الشراب من فمه حين يخفضه الساقي لاملاء الكأس وهم يكنون احياناً عن هذه الإمالة والانحناء بالركوع ، فجعل ابن الساعاتي هذا الركوع سجوداً لصليب الراووق كما يفعل النصارى في الكنائس امام الصلبوت.

١٠٨-٦-١ فقلنا بالهوى حِمام و حَيّ ولنا من ندى يديك معاد

يضبط وحيّ بواو العطف وكسر الحاء من حِيّ بمعنى الحياة. ولم يفتتر كيف يكون الهوى قضاء بالموت والحياة في آن واحد. والصواب حِمام وَحِيّ فعيل من الوحي والوحاء بمعنى الاسراع اي قضاء بالموت العَجل السريع.

١١٠-١٨-٦ فلو انه قصد الخطار لنازح لاصاب عين قصاده في الاكحل

قال في الحاشية: «كذا هذا البيت في الاصل وهو مبهم ولعل الخِطار جمع خَطَر اي السحاب اما الاكحل فعرق في اليد يُفصد ولعل معناه : لو انه قصد السحاب لمن لا ماء عنده لاصاب السحاب في اكحله نفصده فصداً». ولا حاجة الى التنبيه على ما في هذا الهذيان واستعارة الاكحل للسحاب من الغفلة والسخافة. ومن اقصى العجب تفسيره الخطر بالسحاب ، وهو زعم لم يخطر قطّ على قلب لغوي فن اي معدن جاء به ? والخطب اهون جداً من ان يحتاج فيه الى استنباط او اختلاق ، لان الخِطار مصدر خاطر كالرهان زنة ومعنى ، ومقصود الشاعر ان الممدوح حديد البصر في القتال لو شاء المراهنة على إصابة نازح بعيد عنه في مقتله اي في الاكحل وهو المعروف بعرق الحياة لفعل ويؤيد هذا الوصف قوله في البيت السابق :

يُفضي الى السرّ الخفيّ فؤاده تحت السوابغ في ظلام القسطل

١٢٣-١٨،١٩-٥ وجُلّ ذنبي عند تلك الشيَم حبّ عتيقٍ والبَطين الاترع

قال: «كذا رواية هذا الشطر في الاصل يشير الى حبّه المعنى الكريم والبعيد الغامض على الغير». وهو تمحّل لغوي في تأويل العتيق بالقديم النفيس والبطين بالباطن الغامض ، ولو كان هو مراد الشاعر لقال حب العتيق بلام التعريف كما

ادخلها على البطين. ولكن ما يفعل بصفة الانزع وهو في اللغة من انحسر الشعر عن جانبي جبهته؟ وكيف لم تنتبه هذه اللفظة التي قُرنت بالبطين الى انه قد ضلّ الطريق؟ وانما العتيق، كما يعلمه من له مشاركة في التاريخ، هو لقب ابي بكر اول الخلفاء الراشدين، والبطين هو علي بن ابي طالب لانه كان معروفاً بعظم البطن وصلع الرأس، فيكون من ثم مقصود ابن الساعاتي ان يقول انه سنّي وان ذنبه عند الشيعة ولاؤه للامامين المذكورين.

ومن هذا القول يتضح جيدًا معنى الابيات الواردة في الصفحة ٣١٩. التي ارتجلها في جدال احد الشيعة في «تأخير الامام» واجابهُ بقوله :

انظن تأخير الامـام نقيصة والنقص للاطراف لا الاشراف
زوج البتول ووالد السبطين والفادي النبيّ ونجل عبد مناف

وقد اشكل معناها على الشارح ولم يهتدِ اليه من ذكر البتول والسبطين اي فاطمة زوج علي بن ابي طالب والحسن والحسين ابني بنت الرسول.

٢٣٦-٥-٢ لم تزل في كل حال كفهُ هدم المـال وللاعداء تبني

قال في الحاشية : «كذا ولعله يقصد تسرّح المال وتأسر الاعداء». والأسر لا يعبّر عنهُ احد بالبناء. وانما اراد بالبناء مقابلة الهدم الذي كنى به عن الإنفاق لحرصه في معظم شعره على الاستكثار من فنون البديع كالمقابلة والطباق والجناس، ومراده هنا ان الممدوح يهدم صرح امواله بما يبنيه من الحصون والمعاقل لدفع الاعداء.

٢٦٤-٣-١ ان عاد صبحي وهو ليل دامس فبما صحبت الليل صبحاً سرمدا

قال : «اي ان عاد صبحي ليلًا فلكثرة ما اصابني من الحوادث» وهو خلاف ما اشار اليه في العجز اي ان عاد صباحي اسود بعد فراق الاحبّة فطالما كان ليلي صباحاً بطيب لقائي لهم ونظري الى صباحة وجوههم.

٢٨٣-٥-٢ هو المُنتضِي داعيهِ والمُنتضَى الشبا وقد عزّ من يُدعى واعوز من يُمدي

وفي الحاشية : «كذا الاصل وانتصى بمعنى طال وارتفع». وهو ما يدل على ان ضبط المنتضي بالضاد في المتن هو من غلط الطبع وان الصواب المنتصي بالصاد المهملة وتفسيره انتصى بمعنى طال وارتفع هو غلط ثانٍ لان كلا الفعلين

لازم لا يتعدى الى مفعول ثانٍ . والصواب انتصى اختار وروايتهُ المُنتضَى الثانية بالالف المقصورة على انه مفعول هو غلط ثالث بدلًا من المنتضي بالياء بصيغة الفاعل يصف ممدوحه بانه يجيب مختارًا من يدعوه ويستل سيفه لنصرة من يستعديه .

٣٠٥-٧-٤　قدك لا لوم قد عجزتُ عن القو　ل وان كنتُ ليس يُفرى فريّ

قال : « كذا الاصل وفي فريّ اضطراب في القافية والمعنى . ولعله يريد به لا احد مثلي » . قلنا ليس هنالك اضطراب وفي اساس البلاغة : « فلان يفري الفري اذا اتى بالعجب » فحقّ القافية ان ترسم فريّي بيائين بالاضافة الى ياء المتكلم اي عجزت عن القول وان كان لا يقدر احد ان يأتي باعجب مما أحسنه من الكلام .

٣٦٦-١١-٧　تخلي الشؤون وشأن إدرارٍ على　دار حللت براميتين موظّف

قال : « اما لفظة موظّف فهي كذا في كل النسخ ولم نهتدِ الى المراد منها » قلنا هي صفة إدرار اي إدرار معيّن مقدَّر على دار الرقمتين .

٣٥٠-٩-٤　لا في النفير اذن ولا في العير معدود ولا في العقد والحلّ

وفي الحاشية : « قولهم لا في العير ولا في النفير مثل يضرب لمن لا يد لهُ في الامر » والصحيح ان المثل الذي يضرب بهذا المعنى هو قولهم «لا ناقة له فيها ولا جمل . واما مثل « لا في العير ولا في النفير » فيضرب لمن لا يصلح لمهمّ وللرجل يُحطّ امره ويصغّر قدره وشتان بين المعنيين .

٣٦٦-١-١　حتى صدّني يوم فقدي اخا　ك واعقبته فاقتَ الأوَد

فسّره بقوله : « حرّ لوعتي على اخيك قوّس ظهري ثم جاءت مصيبتك فقوّمتْهُ بحرارتها » ولا نفهم كيف ان حرّ اللوعة الاولى يقوّس الظهر وحرّ اللوعة الثانية يقوّمه بعد ذلك بل هو اخلق ان يزيده تقوّسا وانحناء . والمعنى الصحيح ظاهر بادني تأمل : ان ميلادك عقب اخيك كان عزاء لي وقواماً لأودي وكبتاً لاعدائي ولذلك اضاف في البيت التالي :

واملتُ ما فاتني منه فنيك ممات المدى وحياة الحسد

٣٩٦-١-١　أمّه من سلالة الزنج والرو　م بنوها ترضيك اهلا ونخلا

قال : يشير هنا الى الدواة ويشبه صفرتها بالروم وسواد حبرها بالزنج » .
وهو تفسير لم يرزق اقل حظ من الروية والتدبر . والضمير في امه راجع الى القلم الذي نعته قبلًا بقوله :

ناطق وهو اخرس يجب الما ل جزيلًا ويجنح القول جزلا

ويعني بأمه الدواة . ومن اشد الغرابة ان توصف بالصفرة وقد صرح في البيت التالي بقوله فيها :

فهي أخت الليل البهيم فقد نقطها بالنجوم خيلًا ورجلا

اشارة الى انها كانت سوداء كالليل اي من الآبنوس مسقطة بالذهب الذي كنى عنه بالنجوم ولذلك قال انها من سلالة الزنج وقد عدد المقريزي انواع الدُوي في الدول المصرية وذكر بينها « المعمولة من الذهب والفضة والصندل والعود والآبنوس الزنجي والعاج . . . (الخطط ٢ : ٢٦٤) والآبنوس الزنجي هو الذي وصفه ابن الساعاتي ولذلك قال ان ام الدواة من سلالة الزنج فكيف تكون الدواة صفراء ؟ اما بنوها اي اقلامها فكانت كسائر الاقلام صفرًا ولذلك جعلها من الروم الذين كانوا يعرفون ببني الاصفر وليس للحبر ذكر في هذا الوصف كما توهم الشارح وهذه الابيات تقدمت على بعض اختلاف في الرواية في الجزء الاول من الديوان (ص ٢٣٠) فلا شك انها كانت مقتضبة من هذه القصيدة وهو ما كان ينبغي ان ينبه عليه في الحاشية .

وقد ضربنا صفحاً عن كثير من الابيات التي غلب على شرحها الارتباك او الوهم وانما المهم قبل الشرح صحةُ المتن وحسن ضبطه وسلامته من الخلل والتحريف والنقص ، خلافاً للتفسير فانه فضلة او فضول يأخذ منه القارئ اللبيب او يدع ما شاء . وكان احرى بالاستاذ الاقتصار على شرح ما اعتاص فهمه حقيقة ، والتجاوز عن السهل الظاهر منه ، ولو فعل لصان قلمه وعلمه عن شبهات الزلل والتقصير في ما فرط منه سهوًا ، ولادخر الوقت الذي اضاعه عبثاً في كتابة ما يُستغنى عنه للتوفر على اطالة الروية في شرح الغامض والمبهم من الالفاظ والمعاني التي توقف واحجم عنها حائرًا وَجِلًا وقوف من هابته اللجة فخاض في الساحل . ونحن نعلم ان بين هذه الالفاظ والمعاني المستغلقة ما لا

يضطلع احد بحلّ مشكله واماطة الحجاب عنه وتسديد ما تشوّه باقلام النساخ الا ابن الساعاتي نفسه لمعرفته بما كانت تعنيه هذه التعابير في زمانه او ما اضمر فيها من الخواطر والرموز وقد سبق وحذّر من يأتي بعده من القرّاء والشرّاح ان يضِلّوا في مجاهلها حيث قال بلسان المعجب والخيلاء :

ان الفاظي التي يشهد الفضل لها انها الكوامل فضلا
ومعانيَّ لو يسير اليها الفهم يوماً بغير هادٍ لضلّا

وفي هذا القول عذر كافٍ لكل من تعذّر عليه فهم بعض ابيات الديوان ولم يهتدِ الى حلّ كل الغازه ومعمّياته .

اوهام الاعلام

٣٣ — ٤ « عز الدين موشك » بالشين بدلاً من موسك بالسين المهملة وهو عز الدين بن جكو المتوفى سنة ٥٨٥/١١٨٩ احد امراء صلاح الدين الايوبي وموسك هو تصغير موسى كما قالوا جعفرك في جعفر .

٧٣ — ١٢ — ٥ رمى الله جيش الانكتار بروحه فيكفيه ما فيها من البرد والثقل

قال في الانكتار : « كذا الاصل والملحق » قلنا هـذا الاسم عُرف به الانكليز في الحروب الصليبية واول ما سمع لا شك في تعريف ريشار ملك Angleterre والالف فيه ممالة بين الفتحة والكسرة ولذلك كان بعض الكتاب يرسمونه احياناً بالياء اي انكتير كما في كتاب الفتح القدسي مثلاً لعماد الدين الاصبهاني وقـد رواه ابن الساعاتي مرة بهذا الرسم في ثلاثة ابيات قالها في صلاح الدين اولها :

سلْ عنه قلب الانكتير فان في خفقانه ما شئت من انبائه

وفي الحاشية :« الانكتير اي الانكليز ولعل الانكتير والانكتار واحد » فكان الاولى به ان يستدرك تعليقه الاول ويصححه قبل الطبع .

٧٩ — ١٥ — ٣ « شقة الفسطاس » قال: شقة الفسطاس اي بعد مسافة مصر » ولم يذكر ما هو الفسطاس ولا اين ورد تعريفه وما نخال هذه اللفظة الا تحريف « الفسطاط » بمصر وهو الاشبه .

وفي عنوان هذه القصيدة « وكتب اليه يشوقه ويتشوق دمشق » والضمير في اليه راجع الى ابي الحسن علي بن نظيف الذي قيلت فيه القصيدة السابقة (ص ٢٧) وهو سهو ظاهر والصحيح ان القصيدة المنونة مع القصيدتين التاليتين: (معاليكَ اعلى ان يحيط بها الوصفُ) و (سَرَت بدر تمّ في سحاب من النقب) هي في ابي اليُمن تاج الدين الكندي لورود ثلاثة ابيات منها صُرّح فيها بكنيته واسمه وهي (يا ابا اليُمن وهل منقبة) و (ابا اليمن جادتك الغوادي وعرّضت) و (تجافت عن الكندي قلت لها حسبي) وقد علّق الشارح على هذا العجز الاخير « الكندي هو الممدوح (حاشية ١) فكيف لم يتنبه الى تصحيح العنوان مع معرفته ان كنية علي بن نظيف هي ابو الحسن وليس ابا اليمن.

٨١ - ١١ لذّ واديها بعيني مثلما شنفاً قلبي المعنّى شرفاها

كذا شنفاً بالتنوين بدلًا من شنفا شرفاها على لغة « اسرّوا النجوى الذين ظلموا » . وقال في تفسير : « شرفاها اي جبلاها والشرف المكان العالي » . وانما الشرفان هنا من متنزهات دمشق القديمة وهما الشرف القبلي والشرف الاعلى ، وقد ذكرهما ابن الساعاتي مرة اخرى بقوله:

والشرفين والمصلّى وذرى ربوتها والوهد من ميدانها (ص ١٣٤ س ٦)

وفي الحاشية : « ان هذه الاعلام اماكن معروفة بدمشق » فكيف لم يتذكر تفسيرهُ السابق ليصلحه ? وقد اتفق له غير مرة شروح مختلفة على اللفظ الواحد.

١٦٩-١٧-٦ واذا ما تلوتَ ايات وجدي ثمَّ فاجعل منهنَّ للسهم سها

قال : « لعله يريد بالسهم الاولى ما اصابه من عيون الاحباب » (كذا) واغرب من هذا التفسير قوله في شرح البيت:

فالشرف الاعلى يتيه شرفاً والسهم سهم والهموم مقتل (٢٩٠ س ٥)

« السهم الكوكب المعروف بالرامي » وهو صنيع من يقتصر على تفسير الالفاظ المفردة بنقل ما ورد من معانيها في كتب اللغة ، بقطع النظر عن مناسبتها للمقام او انطباقها على مراد الشاعر . وقد وقع الشارح كثيراً في مثل هذا الذهول ، ولينظر اي معنى يستخلص من ذكر الكوكب المعروف بالرامي في

جنب الهموم ومقتلها. ولكنه ما عتم ان احسّ بما في تفسيره من البعد والمجازفة فقال على الاثر: «لعله اسم مكان» وقد ذكرنا في نقدنا للجزء الاول من الديوان تخليطه وخبطه في تفسير اسم السهم وان هذا العَلَمَ كان احد متنزهات دمشق القديمة المتصلة بارض الصالحية.

٣٠٠–٥–١ ولي قلب يهيج هواه نجد وقدماً كان يطربه الحيار

وفي الحاشية: «لعله يريد بالحيار جمع حير وهو البستان او الحيرة وهي الارض المخضرة وهو على كل حال غير واضح». قلنا يمتنع في القياس جمع حير او حيرة على حيار فكيف صحّ عنده هذا التقدير؟ وانما الحيار صقع من برية قنسرين على يومين من حلب ذكره المتنبي في شعره وبه يتضح المعنى.

٢١١–١–١ «آمد بلدة قرب ديار بكر» وانما هي اليوم مدينة ديار بكر نفسها ولذلك يدعو الاتراك بلدة ديار بكر «قره اميد».

٢٩٤–١٤–٥ صاح لا تبكين زرودَ فما ابعد بعد الفراق منك زرودا

قال: «زرود علم فتاة». قلنا: استنوق الجمل. زرود رمال بطريق الحاج من الكوفة بين الثعلبية وقدماً والخُزَيمة (معجم البلدان ٢: ٩٢٨) وفيها قال مهيار:

ولقد احنُّ الى زرود وطينتي من غير ما جُبلت عليه زرود

واليها اشار صاحب الديوان بقوله فيما بعد:

طلَّقتُ عادات النسيب ليلة أنسَت ليالي عالج وزرود (ص ٢٧٧)

٤٠٣–٨ «وقال ايضاً وكتب بها الى صفي الدين بن شُكَر» بفتحتين والصواب شُكر بضم وسكون، وهو وزير الملك العادل اخي صلاح الدين الايوبي ولابن عُنين في هجائه:

ضاع شعري وقلَّ في الناس قدري من وقوفي باب اللئيم ابن شكر

(فوات الوفيات للكتبي ٢: ٢٨١)

الالفاظ الدخيلة والمحدثة

كنّا ، في ختام كلامنا على الجزء الاول من هذا الديوان ، علّلنا الامل بان يطرفنا الاستاذ في ختامه بفصل وافٍ يعلّق فيه ما شاء علمه ونظره من التنبيهات والاستدراكات على لغة ابن الساعاتي وما تخللها من الاسماء المولّدة والصِيَغ الطارئة على القياس والافعال والمصادر التي نهج فيها منهجاً جديداً وتوسّع في تعديتها وتأويلها ، ليكون القرّاء على بصيرة من امرها وبيّنة من معناها وصحة استعماله او خطإه فيها. وهي الخدمة التي سبق لمثلها المستشرقون الاعاجم في كل كتاب عربي تولّوا طبعه ، واصطلحوا على إلحاقه بفهرس خاص لكل الالفاظ الواردة فيه بمعنى لم يُنبَه عليه في المعجمات العربية . ولا يخفى على احد ما في هـذه التنبيهات والشروح من الفوائد والقيود المعينة على جمع تاريخ محيط باللغة في حضارتها وتطوّرها في كل قرن من القرون التي توالت عليها منذ الهجرة ، يستعين به الطالب لتفهّم آثار الشعراء والكتّاب والمؤلفين في عهد الخلافة العباسية في العراق ومصر الى انقراض دولة المماليك . وكل من عانى درس سجلّات هذه الحقبة بين مطبوع ومخطوط يعلم ما يعترض احياناً دون استيضاح بعض الفاظها وتعابيرها من الشبهات والمصاعب ، لاستغلاق مغزاها ومدلولها ، وهي لم ترد في كتاب موضوع لنظائرها واشباهها ، ولا عُني احد من المتقدمين بجمعها وتفسيرها لمن يأتي بعده . واول من تفطن لها حقيقة وتتبع شواهدها في كتابات العصور السابقة وعلّق عليها التعليقات الضافية المستشرق الفرنسي كاترمير في ترجمته تاريخ المماليك وتبعه الهولاندي دوزي فقيّد شواردها وجمع أوابدها في معجم حافل في مجلدين كبيرين دعاه « تكملة المعجمات العربية ». ومع كل ما استقراه واستوعبه منها لا تزال منها بقايا جمّة ودِمَن مبعثرة في مخطوطات الآداب الاسلامية الى قيام دولة الاتراك العثمانيين . فاذا أُريد متابعة التنقيب عنها وتوزّع مشاق استقرائها والاحاطة بها ، لا بد لكل من يتصدى في الشرق لنشر مؤلَّف قديم لاحد الكتبة والمؤرخين او ديوان مجهول من دواوين اكابر الشعراء السابقين ، ان يتحرّى كل الالفاظ الطارئة والدخيلة والمولّدة التي تمرّ به اثناء

التمثيل مما خلت منه كتب اللغة ويبذل جهد الطاقة في تفسيرها والوقوف على معناها. فاما اليوم ، وقد اغفل الاستاذ المقدسي هذه الخدمة الجلّى وآثر التوسع في تأويل المعاني حتى في الابيات التي لا غموض فيها ، فحسبنا ان نجتزئ من الكلام على كل مـا في ديوان ابن الساعاتي من مواضع النظر والاستدراك بالاشارة الى ستة الفاظ نقط دخيلة او محدثة وردت في اثناء الشعر،لما في التنبيه عليها من الفائدة ، وقد ضرب الشارح عنها صفحاً او لم يهتدِ الى الصواب فيها:

١ بَرْدَدَار

جاءت في البيت المذكور في الجزء الاول :

لا خاب سعياً بردادار الدجى لحجبه عنا جنود الصباح (ص ١٠٨ س ١٤)

وهي من الالقاب السابقة لارباب المناصب في الدولة المصرية يكون صاحبها « في خدمة مباشري الديوان في الجملة متحدثاً على اعوانه والمتصرفين فيه . . واصله « فردادار » بفاء في اوله وهو مركب من لفظين فارسيين احدهما « فردا » ومعناه الستارة والثاني « دار » ومعناه ممسك والمراد « ممسك الستارة » وكأنه في اول الوضع كان يقف بباب الستارة ثم نقل الى الديوان »[1] وشاع بعد ذلك استعماله في الاصطلاح بمعنى الحاجب والبواب وربما قيل احياناً « بردار » بدال واحدة تخفيفاً قال ابن النبيه :

انت يا ليل حاجبي فاحجب الصبح وكن انت يا دُجى برداراً

٢ قندس

كتب ابن الساعاتي الى بعض الاكابر وقد ارسل اليه خلعة :

مولاي قد جاءت اليّ الخلعة المقدسه
يصحبها الشربوش سبحان لطيف قندسه (٢ : ٧٢-٣-١)

قال الشارح : « قندس من القندسة . وهي خشبة يستعملونها في بناء القناطر فيكون معناه سبحان من رفعه بالقندسة » . قلنا يا سبحان الله كيف يُعقل ان تحمل الخلعة يصحبها الشربوش — وهو قلنسوة طويلة — مرفوعاً بالقندسة اي

١) صبح الاعشى للقلقشندي ٥ : ٤٦٨ – ٤٦٩

بخشبة البنائين ؟ واي معنى لمثل هذا السخف يصلح ان ينظم شعرًا ويسبح الله من اجله ؟ اما كان الاولى الإغضاء عن هذه اللفظة والسكوت عنها كما سكت عن الفاظ كثيرة في الديوان لم يُرَ لها وجه ولا تفسير ويُترك للقارئ حلّ مشكلها اذا وجد اليه سبيلًا ؟ والحقيقة ان « قندسه » فعل اشتُقّ من كلمة « قُندُس » وهو لفظ فارسي يكتب ايضاً بالزاي بآخره اي قندز لكلب الماء اورده غلطاً صاحب محيط المحيط براء بآخره . وكان يُتخذ من جلده قدة كالزيق يطوّق بها الشربوش فمعنى قندسه طوّقه بقدّة من جلد القندس . وقد اشار المقريزي الى القندس في صفته للطاقية في دولة المماليك فقال : « وجعلوا من اسفل العصابة المذكورة زيقاً من فرو المقرّض الاسود يقال له القندس في عرض نحو ثُمن ذراع »[1].

٣ طلب واطلاب

وردت لفظة اطلاب جمع طاب في ثلاثة ابيات وهي :

كتائبٌ كُتُبُهُ احيان يرسلها اطلابها في طلاب الامر اسطار (٢:٣٦٢-٦)
قيل كتائبه سطور كتابه فكأنما اطلابه اسطاره (٢:٣٧٧-١١)
كم اثارت من قسطل فيرى من فوق اطلابها ترابًا ورملا (٢:٣٩٥-١٤)

وفسر فيها الاطلاب بانها جمع طِاب اي طالب قال : « ولعله يقصد ان سطور كتبه تطلب الاعداء كالجيوش » ومثل هذا المعنى الغريب لا يخطر في خاطر ابن الساعاتي وقوله جمع طِلب بالكسر غلط آخر . والصواب جمع طُلْب بضم الطاء وهي لفظة دخيلة نشأت في دولة الاتراك والاكراد وفسرها المقريزي بقوله : « الطلب بلغة الغزّ هو الامير المقدم الذي له علَمٌ معقود وبوق مضروب وعدة من مائتي فارس الى مائة فارس الى سبعين فارساً »[2] . ثم أُطلقت على فرقة الجيش ولا سيا في دولة الايوبيين ، ووردت كثيراً باقلام مؤرخيهم كالكاتب عماد الدين الاصبهاني ، والقاضي بهاء الدين بن شداد . قال عماد الدين : « رتب السلطان ثمانية اطلاب من الابطال وكمّن بتلك الارجاء كماة الرجال

---

١) الخطط ٣ : ١٦٩
٢) « ١ : ١٢٩

وانتخب من كل طلب عشرين فارساً»[١] و «عطفت العساكر المنصورة طلاباً لتلك الاطلاب»[٢]، و «سار السلطان باطلابه وابطاله»[٣] وقال بهاء الدين: «كان صلاح الدين اذا اشتد الحرب .. يخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة ويرتب الاطلاب»[٤] و «كان يجول بفرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد»[٥] واشتق الكتّاب فعلاً من هذه اللفظة فقالوا طلّب اذا رتب الاطلاب، قال عماد الدين في كلامه على الصليبيين: «رتبوا الرجال وطلّبوا الفرسان»[٦]. وقال الصاحب ضياء الدين بن الاثير: «لم يلبث خصومه ان ركبوا وطلّبوا وقصدوه»[٧].

الصفار بمعنى الصفرة في اللون

ورد مضبوطاً بضم الصاد في البيت الآتي في وصف الدينار:

وأخافَ قلب العين حتى شابهُ   ذاك الصُّفار لبأسِهِ ان يُخزَنا   (٢:٤٦-١٣)

وهو بالضم داء بالبطن كالصفير. واما اذا أُريد به صفرة اللون كما في البيت المذكور فالصاد مفتوحة قياساً على ما جاء على وزن فَعال من الالوان كالبياض والسواد، وهو بهذا الاستعمال مولَّد عامي وقع فيه غير شاعر من المحدثين والمتأخرين كسبط ابن التعاويذي في وصف رقعة صفراء بقلم دقيق قال:

لا تنكرنَّ صفار قرطاسي اذا   وافى اليك ورقةَ المكتوب[٨]

ولمجير الدين بن تميم في وصف كأس المدام:

وما كان هذا لونها غير انها   علاها لطول الانتظار صفار[٩]

---

١) الفتح القدسي ١٨٤
٢) 〃 〃 ٢٠٢-٢٠٣
٣) 〃 〃 ٢٥٣
٤) النوادر السلطانية ١٥
٥) 〃 〃 ١٥٥
٦) الفتح القدسي ٢٠٢
٧) الثاني من ترسله، في الخزانة الشرقية ٣ : ٢٦٢
٨) ديوانه ص٥١
٩) خزانة الادب لابن حجة ٢٥٦

اوّلة بمعنى اولى

وردت لابن الساعاتي في قوله :

ثنائية مُرّها ما حلا واوّلة حرّها ما خمد (٢:٣٦٦-٦)

وفي الحاشية عليها : « كذا في كل النسخ وهو خلاف القياس ولعلها آولة بمعنى سابقة من أول » ولم يذكر اين وجد أولَ بمعنى سبق . ومن الغريب الذي لا يُعقل صدور مثل هذا التسرع والطيش من قلم استاذ الادب في الجامعة ، ولديه امهات اللغة ودواوينها . وقد كان يكفيه ان يفتح اساس البلاغة ليقرأ فيه قول الزمخشري : « تقول جمل اوّل وناقة اوّلة اذا تقدما الابل »[1] ولو بحث ونقّب في كتابات المتقدمين لوجد ان ورود « اوّلة » في مكان « أولى » باقلام بعض الكتاب والمنشئين فضلًا عن الشعراء غير قليل ، ومنه قول القاضي التنوخي في كلامه على الجرايات التي اطلقها الوزير حامد بن العباس على البوابين في داره : « فقال له وكيل الدار : ان الجرايات لما تضاعفت جعلوا الاوّلة لعيادتهم في كل يوم وصاروا يجمعون الثانية عند القصّاب »[2] وقال ايضاً في اخباره عن الوزير ابي الحسن بن الفرات : « وضرب الدهر ضربه وولي الوزارة الاوّلة »[3] ومثله قول هلال الصابئ في حديثه عن مغنّيتين : « اجابت الثانية الاوّلة بجواب في وزن الصوت وقافيته ومعناه »[4] وقال ايضاً في موضع آخر : « يلقاه بعد يوم فيكون حاله معه مثل الحال الاوّلة »[5] ونظيره ايضاً قول ابن القلانسي : « فيها (سنة ٥٣٧) وردت الاخبار بظهور متملك الروم الى الثغور دفعة ثانية بعد اوّلة »[6] وممن استعملها كثيرًا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار »

---

١) اساس البلاغة ١ : ٣٥

٢) نشوار المحاضرة ١ : ١٥ ومثله ايضاً ص ٩١ و٩٢

٣) نشوار المحاضرة ١ : ٢٨

٤) تاريخ الوزراء ١٩٠

٥) تاريخ الوزراء ٣٧٨

٦) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٦

٦ تلاف بمعنى تلف

جاءت هذه اللفظة في مطلع قصيدة في مدح الملك الافضل ابن صلاح الدين الايوبي :

ما على الركب من تلاقي تلافي بين تلك الغصون والاحقاف (٢ : ١٨٣ – ٤)

فعلق عليها الشارح : « اي من نداك قبل ان اتلف وتلاف للتلف ليست في كتب اللغة » (حاشية ٢) وفاته ان يذكر ان تلافي الاولى هي مصدر تلافى اي تدارك وان تلاف بمعنى تلف قد وردت كثيراً باقلام الكتاب والشعراء كابن عُنَين في خطابه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل ابي بكر بن ايوب :

انظر اليَّ بعين مولًى لم يزل يولي الندى وتلافَ قبل تلافي(١

وجاءت ايضاً في أبيات للقاضي عبد الرحمن بن فرفور الدمشقي منها :

صابرته فالجسم مني لقىً تجلدا والقلب مني مريض
فاذ ابى الا تلافي وقد احلّني منه محل النقيض...
سلّمت للاقدار مسترعاً لباب مولى ذي عطاء عريض(٢

ومن الغريب الذي يجدر التنبيه عليه خاصة ان ابا العلاء المعري ، وما احد يجهل تضلعه من اللغة ورسوخ قدمه فيها ، قد استعمل كثيراً لفظة التلاف في النثر والنظم وأولع بايرادها بعد مصدر تلافى حباً بالجناس كقوله في رسالة الغفران : « لا تلافيَ بعيد التلاف »(٣ وقوله في كتاب اللزوميات :

وهل ألُمَّ ودادًا رُمَّ من شَعَثٍ وقد لمحت تلافي في تلافيكا(٤

وله ايضاً :

تلافَ امرك من قبل التلاف به فغاية الناس في دنياهم التلف(٥

وقال ايضاً :

---

١) ثمرات الاوراق لابن حجة ٢٤
٢) نفح الطيب للمقري ١ : ٢٤٤
٣) رسالة الغفران ١٣٢
٤) اللزوميات ١٨٦ –
٥) اللزوميات ٢٦٠

توافقت اليهود مع النصارى على قتل المسيح بلا اختلاف
وما اصطلحوا على ترك الدنايا بل اصطلحوا على شرب السلاف
تلافيتام بالقول فيه فجاءم التلافي بالتلاف(١

وهي ترد كثيرًا في كتابات المولدين ويظهر انهم اجروها مجرى الهلاك والدمار والتباب والخسار، وهي واردة كلها على وزن فعال بمعنى واحد. وقول الشارح «تلافي» اي من نداك قبل ان اتلف» هو تفسير ندر من القلم بغير ادنى روية، واي محلّ للندى هنا وقد صرّح الشاعر انه يؤثر التلف والهلاك «بين الغصون والاحقاف» كناية عن القامات والارداف.

وفي الديوان عدة افعال ومصادر واسماء وصيغ وجموع انفرد ابن الساعاتي باتخاذها شذوذًا، او اجراها مجرى القياس وحمّلها معنى لم ترد بــه او اخرجها عن مألوف اللغة واحكامها لضرورة في الوزن والقافية، اشار الشارح قليلًا الى بعضهـا كالأرِن للنشيط (٢ : ٢٢٨—١٠) والصَّيّن (٢ : ٤٧—١٣) وـزؤوس فعول من ساس (٢ : ٥٠—١٠) وقضوب بمعنى قاضب اي قاطع (٢ : ١٨١—١) ونموم (٢ : ٢٤—١٨ و٢ : ١١٧—٩) ونتوج (٢ : ٢٨٧—٩) على ان ابن الساعاتي ليس اول من اشتقّ قياسيًا صيغة فعول للمبالغة من افعال لم تنقـل فيها او لم تُستقص وهي كثيرة لغيره من الشعراء والكتاب وفي إقرارها وإحلالها سعة وفائدة في اللغة، ولكنه احدث معها صيغًا اخرى على غير اساس او مثال سابق كقوله : إباء مستأصر (٢ : ١٦٥—١٤) ومنهل مستأسن (٢ : ٢٧١—٨) ومُكَبَّد من أصيب بكبده بدلًا من مكبود (٢ : ١٢٨—٧) وموطىء زليل اي يُزَلّ فيه (٢ : ٢٩٩—٢٣) وروادف فُعم كأنها جمع فعماء بمعنى ممتلئة وهي لم تنقـل (٢ : ٣٧٩—٧) وليّان اي ليّن (٢ : ٤٧٩—٨) ومسيوف مفعول من سافَهُ ضربه بالسيف كما قالوا مدين من دان (٢ : ٣١٥—٨)

ومن الافعال التي تستدرك عليه : لهيت بدلًا من لهوت بالواو(١ : ٦٠—١٤) وعلق الحبلَ باسقاط باء الجر (١ : ١٧١—١٠) ونجوت من الاشجان قلبًا في مكان نجيت او انجيت (١ : ١٧٧—١٦) وامليتُ الشوق دمعي بغير على

١) اللزوميات ٢٦٦

(١:١٨٢–٣) واحتلف افتعل من الحلف (١:٢٣٦–٢) « ولا نَبَتْ مصرُ ركابي عن مصر » في معنى باعد والفعل لازم (١:٢٨٧–١٣) وشبّه في موضع شبَّه بالتشديد (٢:١٣١–١٤) ورفع السماء المِثيَر اي ابلغه (٢:٣٣٦–٦) واطغوغى افعوعل من الطغيان (٢:٣٣٣–٣) وتسابقَ العلمَ (٢:١٣٠–٧) وناثر الخُطى (٢:١٧٩–١٣) واخصب جمله مخصباً والفعل لازم واسمن بمعنى سمَّن (٢:٣٤٧–١٦) ونائل يتثجَّج اي يفيض تفعل من ثجَّ (٢:٣٥٦–١٤) ويُبخته اي يمده من البخت كلمة فارسية بمعنى الحظ (٢:٣٩٠–٢)

ومن المصادر طعن خلاج (١:١٥٣–٢) والابتياح من ابتاح وهو غير منقول (١:٢١٩–٨) والخناعة بدلاً من الخنوع (٢:٢٥٨–١٢) وكِراهاً في نقيض طوعاً وهو لم يرد في اللغة (٢:٨١–٢)

وقد سكت الشارح عن كل هذه التجوزات والمخالفات فلم يُشر اليها بحرف واحد .

Ibn Al-Ukhuwwa: *The ma'ālim al-qurba fi aḥkām al-ḥisba*. Edited by Reuben Levy. University Press, Cambridge, 1938, pp. 112+247, in 8°.

كتاب معالم القربة في احكام الحسبة
تأليف محمد بن احمد القرشي المعروف بابن الاخوة
عني بنقله وتصحيحه روبن لوي . طبعة دار الفنون بكمبردج ١٩٣٧
النص العربي ٢٤٧ ص – والنص الانكليزي ١١٢ ص . ق . ٨

ان معلوماتنا قليلة عن شخصية المؤلف وقد توفي سنة ١٣٢٩ م (٧٢٩هـ). وضع هذا الكتاب لمساعدة المحتسب، وهو العميل المعهود اليه في الدولة بأمر مراقبة تطبيق الشرائع والقوانين وذلك في القرون الوسطى وما بعدها الى عهد غير بعيد منا .

واليك شيء من ابحاثه :

في الخمر والآلة المحرمة (الباب ٣). في الحسبة على اهل الذمة (باب ٤). في الحسبة على اهل الجنائز (باب ٥). ثم يتناول الحسبة على مختلف اصحاب الحرف الغذائية من فرانين وجزارين وطباخين وقلايي سمك وقلايي زلابية وحلوانيين ولبانين وبزازين الخ. (باب ١١ الى ٢٨). والحسبة على مختلف اصحاب الصناعات من حياكين الى حريريين وقطانيين وكتانيين وصباغ واساكفة الخ. (من باب ٣٠ الى ٤٠) ثم الحسبة على سماسرة العبيد والجواري والدواب والدور (باب ٤١) وعلى الاطباء (باب ٤٥) ومؤدبي الصبيان (باب ٤٦) الى غير ذلك من مختلف الحرف الحرة والتجار وسائر الاشغال . فلا يترك عملا الا حدد واجباته ونظامه وما يترتب على المحتسب من مناظرة وتدقيق فيه.

ولا يخفى ما لمثل هذا الكتاب من فوائد شتى للباحث عن الحياة الاجتماعية في الاسلام، وتنظيمها . فجاء احسن دليل واثبت حجة لما كانت عليه العادات والتقاليد في ذلك العهد. وقد نقل الناشر الى الانكليزية أهم ما ورد في تلك التنظيمات وذيل كتابه بفهرست لبعض الالفاظ التي تعسر فهمها . فاستحق الكتاب كل الثناء. وجاء في مكانه من سلسلة المنشورات الشرقية التي قامت بها جامعة كمبريج لاحياء ذكرى الاستاذ جيب الشهير .

Collection of Oriental Writors on Music — IV. Ancient Arabian Musical Instruments. As described by AL-MUFADDAL IBN SALAMA...*Kitāb al-Malāhī*... Text... edited by JAMES ROBSON, M. A. —Notes by H. G. FARMER, Ph. D., M.A. The Civic Press, LTD. Glasgow 1938 pp. 19 + XXIII pl. in 4°

كتاب الملاهي

تأليف ابي طالب المفضل بن سلمه النحوي اللغوي

هذا الكتاب صَوّره على المخطوط الوحيد الموجود في استانبول ، ونشره بصوره الاستاذ جيمس روبسون، مدرّس العربية في جامعة غلاسكو، وترجمه الى اللغة الانكليزية معلقاً عليه شروحات اضيف اليها غيرها من الحواشي المختصة بآلات الطرب بقلم هنري جورج فارمر . وطبعة الكتاب جميلة ممتازة على ورق صقيل بالقطع الكبير . ولم يطبع منه سوى ٢٢٥ نسخة ؛ ولوحات الصور عددها ٢٣ تشمل صفحات المخطوط العربي (٤٤) اما ترجمتها بالانكليزية والتعليقات عليها فتستغرق ١٩ صفحة . قابلنا بين الاصل وترجمته فرأينا الامانة والموافقة بين لغة ولغة على صعوبة المشاكل التي تعتور تفسير المتن العربي وهو من القرن السادس عشر (التاسع من الهجرة) اما نسخته فهي جميلة واضحة بيد ياقوت المستعصمي خطاط الخليفة المستعصمي في بغداد، وكان المؤلف ابن سلمة قد تعلم على ابن العربي وثعلب وابن السكيت وكان مذهبه في النحو مذهب اهل الكوفة .

ولما كان الكثيرون من العرب يعتبرون آلات الموسيقى محرمة ، سوى الطبل والطبورة للحاجة اليها بالحرب، خصّص المؤلف نحو ربع الكتاب لدحض زعمهم . ثم جاء في سياق الكلام على ذكر الآلات الموسيقية المستعملة عند العرب، وقد رأينا ان نذكرها عن الكتاب لما فيها من الافادة اللغوية والفقهية، محرّضين القراء على مراجعة مصادرها في الاصل . واليكها : الطبل ، العود، المعزف ، الطنبور ، المزمار ، القصبة ، الدف ، الكِران ، المزهر ، البربط ، الموتّر ، العرطبة ، الدّريج (كالدربكة) ، الونّ ، المشتق ، المزمر، الزمارة ، الناي ، اليران ، القصاب ، اليراع ، الزنبق ، الهنقة ، الكنارة ، الكبر ، الكوبا ، المعزفة .

وجاء العود في مقدمة آلات الطرب وامهاتها . فروى فيه ابن سلمة حكايةً بربريةً وحشية تبكي وتدهش كأنه بها يصف وصفاً قصصياً واقعياً العواطف الثائرة في نفوس عشاق فن الغناء بين شفقة وقساوة وسمو وتزهد وقنوت وتشوق وافراح واتراح وحياة وموت قال : (ص١٧ من المخطوط ، لوحة IX)

« ذكر هشام بن الكلبي ان اول من عمل العود فضرب به رجل من بني قابيل ويقال قابين بن آدم يقال له لمك وكان عمر زماناً طويلاً ولم يكن يولد له فتزوج خمسين امرأة وتسرى بمائتي سرية فولدت له جاريتان يقال لاحدهما صلاء وللاخرى يم ثم ولد له غلام قبل ان يموت بعشرين سنة واشتد فرحه فلما اتت على الغلام خمس سنين مات فجزع عليه جزعاً شديداً فاخذه فعلقه على شجرة فقال لا تذهب صورته عن عيني حتى يتقطع اشلاء او اموت فجعل لحمه يقع عن عظامه حتى بقيت الفخذ بالساق والقدم والاصابع فاخذ عوداً فشققه ورققه وجعل يؤلف بعضه على بعض فجعل صدره على صورة الفخذ والعنق على صورة الساق والابزيم على قدر الغلام والملادي كالاصابع وعلق عليه اوتاراً كالعروق ثم جعل يضربه ويبكي وينوح حتى عمي فكان اول من ناح وسمي الذي اتخذ عوداً لانه أتخذ من عود » .

ف . ت .

J. Georgesco : *Une enquête sur l'Union des Églises en Roumanie.*, Lyon, 1939 pp. 134 in 8°.

الاستفتاء في قضية اتحاد الكنائس في رومانية

ان السيد جورجسكو الروماني تصدى لرغائب الكثيرين من ابناء بلاده القائلين بواجب التماس الطريق للوحدة الدينية في بلاد رومانية لتعتز بها كما في وحدتها السياسية ، ايام نشر هذا الكتاب ، فعرض قضيتها على الرأي العام وخاصةً على الرجالات المفكرين من الكاثوليك والارثوذكس ، مستفتياً اياهم في الجواب على اربعة اسئلة يفيدنا الاطلاع عليها ، وعلى بعض الجوابات التي تلتها لما لها من الاهمية لمصلحة النفوس الابدية ، فضلاً عما يجده فيها المفكرون من بلادنا اللبنانية العزيزة ، وبالعموم في كل بلد من بلادنا الشرقية من تشابه

في الاحوال الدينية السياسية بيننا وبين رومانية ، واليك السؤالات :

١ – الآن وقد تحققت الوحدة السياسية في رومانية أترى هل حان الوقت للتقارب الروحي بين الرومانيين في اعتناقهم ايماناً دينياً واحداً ؟

٢ – كيف يكون اتجاه هذا التقارب ، في رأيك ؟ وايهما الافضل : الاتجاه نحو الشرق اليوناني - السلافي او الاتجاه نحو الغرب اللاتيني ؟

٣ – اية تكون ، في نظرك ، النتائج الدينية والادبية والاجتماعية والثقافية الصادرة عن هذا التقارب ؟

٤ – اية هي ، في نظرك ، الموانع التي تحول دون ذلك التقارب وبأي وسائط نزيلها ؟

وجاء الجواب بقلم اربعين ممن ارسلت الاسئلة اليهم وكلها تنشد ضالتها الوحيدة وهي واجب اتحاد الجميع في الايمان الواحد واكثرها تدعو الى ذلك الايمان الموروث عن الجدود منذ القدم ، وعليه اتفق الشرق والغرب . وليس الاتحاد برومية والطاعة للاب الاقدس مما يحول دون استقلال البلاد التام .

ف . ت.

Ritter, *Ilahi-Name: die Gespräche des Königs mit seinen Sechs Söhnen*. Eine mystische Dichtung von Fariddaddin Attar. [*Bibliotheca Islamica. 12*]. Hellmut, Deutsche morgenländische Gesellschaft. Kommissionsverlag F. A. Brockhaus Leipzig. pp. 439 + 15 + 28, 134 in8°.

آلهى نامه

از گفتار فريد الدين عطار . بتصحيح هـ. ريتر

النشريات الاسلامية الجزء ١٢ استانبول – مطبعة معارف ١٩٤٠ لجمعية المستشرقين الالمانية

هو الشاعر الفارسي الشهير ولد في نيسابور وعاش في القرن السابع الهجري (١٣ م) – اقام ١٣ عاماً في مشهد ، وقضى ٣٩ عاماً في جمع المؤلفات الصوفية شعراً ونثراً . لقب بالعطار لمهنته ببيع العقاقير . له مؤلفات عديدة .

قال عن نفسه انه نظم ما اناف على المئتي الف بيت شعر . ومن روائع منتوجاته هذه الملحمة الالهية في احد وعشرين نشيداً . وفيها محاورة الملك مع ابنائه الستة. وقد راجعنا في فهرست الكتاب تفاصيل موادها فبدت لنا كموسوعة شعرية فنية ذكرتنا بالياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسي . والفضل كل الفضل للعلامة ريتر في التفتيش عن مخطوطاتها في امهات المكاتب، والعناية بالمقابلة بينها، ونشرها على اساس متين معلقاً عليها في كل صفحة مختلف القراءات مضيفاً اليها الفهارس المتنوعة، خادماً الآداب الشرقية عامة والايرانية خاصة .

ف. ت.

حياة يسوع

للمطران جاورجيوس حكيم

٤٢٠ صفحة ق ١٦ – و١٦١ صورة بالالوان – من منشورات دار السلام القاهرة، ١٩٤٧، مطبعة حريصا (لبنان) – الثمن ليرة لبنانية

هو الكتاب النفيس الذي وضعه سيادة المطران جاورجيوس حكيم، متروبوليت عكا وحيفا والناصرة وسائر الجليل، مزج فيه الاناجيل الاربعة في انجيل واحد بطريقة تاريخية فنية تسهل مطالعة الاناجيل، وتوضح بأجلى بيان حياة يسوع وتعاليمه وعجائبه حسب زمانها ومكانها.

وهذا الكتاب فتح جديد في اللغة العربية ومأثرة جميلة قيمة من مآثر المؤلف الجليل . فندعو الجميع الى مطالعته فهي مفيدة ولذيذة وشائقة .